حبة بندق تنمو في رأسي

وفاء الحربي



حبة بندق
تنمو في رأسي

حبة بندق تنمو في رأسي

قصص قصيرة

وفاء الحـــربي

2016

الاهداء

كان أبي - رحمه الله - يحبّ التاريخ، ويُفضّل الكتب والروايات التاريخية. وفي الليالي الطويلة التي تعجز فيها أمي - رحمها الله - عن النوم، كنت أجلس إلى جانب سريرها، وأقرأ لها من كتابَي " قصص الأنبياء" و"المستطرف من كل فنّ مستظرف". ذات ليلة، من باب التغيير، قرأت لها رواية قصيرة – لا يحضرُني اسمها – عن امرأة محطّمة يخونها زوجها. على الرغم من رؤيتي بوادر ملل على وجهها، إلّا أنّني لم أتوقّف عن القراءة حتى قاطعتني بسؤال: ماذا يحدث لها في النهاية؟ أجبتُها: تنتحر! قالت: عودي إلى الكتاب القديم، لا أحبّ النساء الضعيفات.

إنّ مجموعتي القصصية هذه لا تُشبه قصص الأنبياء ونوادر العرب، ولا تتناول التاريخ؛ لذا، لا أعلم إذا كان من المناسب أن أهدي هذا الكتاب إلى أمي وأبي!

❖ ملخص مذكرات مسخ

(الصفحة الأولى)

المقدّمة

ـ لماذا خلقني الله هكذا؟

= لا يجوز أن تسأل سؤالًا كهذا، أنت معجزة بنيّ، خلقك الله مختلفًا عن البقيّة.

صدّقتُ أنّني معجزة! لم يخلق الله لي يدَين صحيحتَين، بل شيئان يتدلّيان كجناحَي طائر وُلد حديثًا، يغطّيهما الزغب. خلقني دميمًا، في وجهي شيخوخةُ عجوزٍ جاوز التسعين عامًا، نِصْفُ أصلع وقصير. يبدو طفلُ الرابعة أطول منّي، ولم تظهر لي أسنان، وصوتي كصوت دجاجة غصّت بالحبوب، في حين خُلقَ عقلي سليمًا بالقدر الذي لم أفهم فيه أنّني لست معجزة، وأنّني أدفع ثمن خطأ ارتكبَتْه أمي في أثناء حملِها بي.

***

(الصفحة الثانية والعشرون)

المقدّمة

أبلغ الآن الثامنة عشْرة من العمر، أبدو حين أمشي كأنّني كرة هائلة من الصلصال، قام بتشكيلها فنانٌ رديء. كلّ يوم أسمع التعليقات المختلفة، شفقة، سخرية واستغراب. تُلاحقني نظرات التعطّف والقرف، وأنا في طريقي إلى الدار المخصّصة لذوي الاحتياجات الخاصة لتعلّم الأطفال - المعجزة - مثلي الكتابة والقراءة وأشياء أخرى. اكتشفت مؤخّرًا أنّها لا تجعلني جميلًا في مظهري، بل في عقلي وحسب، والذي لن يراه أحدٌ خارجَ الدار. ليس لديّ أسنان مكتملة، ولكنّ فمي أجمل من الأفواه التي خلقها الله كلّها، فمي يكتب، ويرسم.. ولا يشتم. حين أمسك القلم بفمي، أشعر بعقلي يتواطأ معه، ألتمسُ إشفاقهما عليّ؛ فأبدع في الخطّ والرسم والكتابة. أقدامي يكاد لا يسعُها حذاءُ طفلٍ في الخامسة، مع هذا فهي بمنزلة يدَين، آكل وأتوضّأ بهما، عندما أصلّي لا أسجد ولا أركع، أستلقي على بطني، وبصعوبةٍ ترفعني ركبتاي عن الأرض. أحسب أنّ الله خلقني هكذا، وسيقبل صلاتي كما يؤدّيها بدني. الصلاة صلاة الروح. وأنا أحبّ الله على الرغم مِن كلّ شيء.

***

(الصفحة الخامسة والثلاثون)

في انتظار الموت

في الثالثة عشْرة من عمري بدأتُ أدرك الحياة، وشعرتُ بحاجتي إلى رؤية العالَم الحقيقي، لتحسّسه واقعًا ليس كما يظهر لي في التلفاز. سمعتهم في إحدى القنوات يتحدّثون عن

أنّ الأطفالَ مثلي، لا تتجاوز أعمارهم التاسعة عشرة، حزنتُ، ليس لأنّني سأموت، لكنْ لأنّ المدّة التي ستتحمّلُ الحياة فيها دمامتي طويلة جدًّا، خمس سنوات تفصل بيني وبين التاسعة عشرة.

***

(الصفحة التاسعة والأربعون)

أداء الحياة

كتبت قائمة عريضة في الأشياء التي أريد تجربتها قبل أن أموت. حدّدتُ ثلاثةً منها على أنّها الأكثر أهمّيّة، ولن أموت قبل تحقيقها. ومِن جملتها: أن يحلقَ رجلٌ شَعري! ألستُ خليقًا لِأنْ أشعرَ برجولتي؟ أنْ أتناول طعامًا مختلفًا غير صحّيّ، فيه طعمُ بهارات جارتنا ورائحتها، وفي مطعم فخم يخدمني فيه النُدُل. أن أتأرجح، أقود سيارة، أصلّي في المسجد، أدخّن السجائر وأسرقها. ألعب الكرة، أتدخّل في عراك بعض الصبيان.. وغير ذلك.

ملحوظة: "بقيّة الرغبات في الصفحات اللاحقة".

***

(الصفحة الثانية والخمسون)

الرغبة الأولى: "أحلق الشُعيرات القليلة في رأسي عند حلّاق، لا أريد أن تقصّها أمي كالبنات".

اليوم: الاثنين، السابع من رجب. تغيّبتُ عن حصص دار التأهيل، قصدتُ إلى الحلّاق، وقفتُ طويلًا عند الباب الزجاجي

قبل أن أتشجّع وأدخل. كانت مقاعد الانتظار مليئة، وثمّة واقفون كذلك. وقفتُ أنتظر دَوري، والعيونُ جميعُها ترمقُني بنظراتٍ تتراوح لهجاتُها بين التقزّز والاندهاش والشفقة. وكما توقّعتُ - حين أجبتُ عن سؤال الحلّاق، بأنّني أريد حلق شعري كاملًا - بدأتْ مقاعدُ الانتظار تفرغ واحدًا تِلو الآخر، فقد تسلّل جميعُ الحاضرين - على اختلاف نيّاتهم - بهدوء، ولكنّني اخترت أفضل ظنوني، وابتسمت، وحاولتُ إقناع نفسي: "لعلّهم لا يريدون لي طول الانتظار". غضب الحلّاق عليّ؛ لأنّني تسبّبت في خسارته كثيرًا من الزبائن. رفض أن يحلق لي، وراح يطردني كمجذوم. إنّما لا بأس، فأنا كثيرًا ما أصادفُ حلّاقًا جائلًا في الشارع المقابل، وأسمعه ينادي: "احلق شعرك وحلق". مغامرة عبور الشارع بعثت قشعريرة قويّة في جسدي الصغير الدميم الذي خِلتُه عديم الشعور. وككرة، دفعت بدني مُتدحرجًا بين السيّارات، وأنا ألهث، أمّا يداي - أو الشيء الذي تدلّى من كتفي كجناح عصفورة منتوف الريش – فكانت أقصر من أن تظهرَ خلف جسدي المنتفخ، وتطلب منهم التوقّف. تجاوزت بعضَ السيارات، وبعضُها تفادى الاصطدام بي. وصلتُ إلى الشارع المقابِل، وقد بدا لي وكأنّني سافرت إلى مدينة أُخرى، بسبب طول المسافة، وكذلك بسبب شعوري الجميل بالاختلاف. حين وقفت على الرصيف الآخر – وهذا الأخير طالما تأمّلته كمدينة بعيدة تختلف بطعامها وسكّانها ومحلّاتها – رأيتُ الحلّاقَ يجلس على كرسيٍ من الخشب، يضع أدواته على طاولة

صغيرة وينادي: "حلّاق .. حلّاق .. حلّاق، احلق شعرك وحلق". وظننتني سأحلق فعلًا.

- مرحبا، هلّا حلقت لي هذه الشعيرات؟ أريد تجربة الصلع كاملًا.

= اتّفقنا، بخمسة ريالات؟

- لو افترضنا أنّ حلقَ كلّ مئة شعرة بريال، دقيقة! دعني أحسب كم شعرة في رأسي، بهذا العدد لن تصل إلى ريالَين، فما رأيك بثلاثة ريالات؟

= اتّفقنا، على بركة الله.

لم أستمتع بالتجربة كما ينبغي لي؛ لأنّه اضطُرّ إلى أن يحملني كطفل رضيع؛ ليرفعني على كرسيّه.

وهو يحلق شعري، أحسست بالهواء يداعب فروة رأسي، وكأنّ كيسًا بلاستيكيًا كان يكتم أنفاسها قد تمزّق، ثمّ بدأت تتنفّس. لم أشعر بالأسى على الشعيرات التي تساقطت على الأرض، فقد سرقها الهواء، وشعرت فعلا بأنّني أحلق.

***

(الصفحة الثامنة والستون)

الرغبة الثالثة: "تناول الغداء في مطعم"

ملحوظة: تجاوزت الرغبة الثانية؛ لأنّني خفت أن أموت وأنا أفعلها.

اليوم الأربعاء، الثالث عشر من رجب. توقّفتُ منذ يومَين عن تناول الطعام الصحّيّ الذي يُصنعُ خصّيصًا لي، واكتفيتُ بقليل من الفاكهة، خرجت أرتعش من شدّة الجوع، لم يعد عبورُ الشارع مُخيفًا، فقد فعلتُ ذلك مِرارًا، وأشعرُ بأنّني حطّمتُ

أرقامًا قياسية في ذلك. الجوع يجعل أيّ رائحة تنتمي إلى الطعام شهيّة، وإنْ كانت مختلطة برائحة عوادم السيارات والمجاري. توقّفتُ عن المنازعةِ في الوقوف أمام الأبواب الزجاجية، وبلا تردّد، تدرّبت على الدخول إلى "السوبر ماركت" القريب من المنزل.
كان تسلّق المقعد مَهَمّة شاقّة. رفضتُ مساعدة النادل الذي يقفُ مذهولًا ينظر إليّ، وينتفضُ في كلّ مرةٍ أُوشك فيها على السقوط. أحضر النادلُ الآخَرُ علبةً معدنيةً، بدَتْ لي علبة "إسعافات أوّلية"؛ لأصعد عليها، وأكمل صعودي نحو المقعد. نجحتُ - كعادتي - بمساعدة الناس لي في أتفه الأعمال. لم تنتهِ مَهَمّة الصعود بعد، فقد طلبتُ من النادلِ أن أجلس على الطاولة؛ لأتمكّن من إمساك الملعقة بقدمي! أزاح مدهوشًا محتوياتِ الطاولة من كماليات وزينة، ثمّ ساعدني في الجلوس فوقها. أمسكَ لي قائمة الطعام لأقرأها. طلبتُ طعامًا كثيرًا لم أتذوّقه في حياتي قطّ. لم يفارق النادل مكانَه وأنا آكل بقدمي، وعلى وجهه نظرة تقزّز وقرف، كنتُ أُجْهِدُ نفسي في أن أبدو مُغيّبًا عن النظرات المرعوبة وفلاشات التصوير. طلبتُ "الفاتورة" حين أنهيتُ طعامي، وكذلك، دفعتُ قيمتَها بقدمي. في تلك الساعة، وجه النادل بدا لي كأنّ البشرى جاءته، فقد حملني مسرعًا، وألقاني خارج المطعم، بعيدًا جدًّا عن الباب.

***

(الصفحة الثانية والثمانون)

البحث عن صديق.

تأمّلتُ الرغبة الثانية أيامًا عديدة. كنت أحتاج إلى صديق صحيح سليم البدن، كي يساعدني، لم أحظَ بأصدقاء أصحّاء أبدًا، تذكّرت الطفل الذي يبيع الماء في الشارع. ألسنا ننفع لِنؤسّس صداقة مسارها الوحيد "العوز"؟ أنا أفتقر إلى الحياة، غني بالمال، ذكي، وفي استطاعتي أن أضع الخطط الناجحة، وهو - على العكس منّي تمامًا – فقير. كذلك، يمكنني الاستفادة من ميزة أنّ عقله لم يكن يعمل بشكل جيّد نسبةً إلى عمره بجعله يتبعني، ويقتنع بخططي مِن دون اعتراض. أخذ تأسيسُ هذه الصداقة منّي كثيرًا من الوقت والجهد والمال للرشوة. في أثناء ذلك، وصل إلى أمي إشعار من الدار بأنني بتّ أتغيّب كثيرًا، وأمّي لا تعرفُ شيئا عن غيابي لأنّني أخرج في رفقة صديقي بائع الماء كلّ يوم، ويقتسم مصروفي. شعرت بالزهو حين وبّختني: "أين كنت؟". أنْ لا تعرفَ أمي أين أذهب، ومع من أجلس. أن تكون لي أسرار. قلت لها ببساطة: "كنت أعيشُ حياتي. أتخلّص من معجزتي. أو أحقّقها". بكت، ولطالما كنت سببًا في دموعها إلى ذلك الحدّ الذي توقّف تأثيره عن إيلامي. أنا وذلك الصديق مراهقان؛ ويخطرُ لنا كلّ ما يخطر لمراهقي العالم كلّه. فإذا تحتّم علينا الركض؛ كان يحملني فوق ظهره؛ ليسعنا الهرب حين يُطاردُنا الكبارُ ليقبضوا علينا، جرّاء سرقة أو ما شابه ذلك. لم يكن بإمكاني الركض بسبب قِصر قامتي، وتقوّس ساقيّ اللتين تحدّان مِن خطواتي القصيرة، فربّما كنتُ سأتدحرج مثل كرة فارغة من الهواء ومنبعجة، لا يلبث أن يعرقل انبعاجُها

تدحرجَها. فقد حققّت معه رغباتي كلّها، باستثناء الرغبة التي طلبت صداقته لأجلها، والتي قد لا تزالُ تنتظرُ مزيدًا من الثقة والاقتناع.
بصوتي الدقيق، وكأنّني أتحدّث في علبة معدنية صرخت، شتمت، بصقت على المارّة، وبقدمَي صديقي ركضتُ لأهرب، وبيديه رميت العلب الزجاجية على السيارات مِن فوق جسر المشاة، رسمت بفمي على الجدران. صلّيت في المسجد ولم تبرح أذني جملة: "سبحان الله" من أفواه المصلين؛ حتى كدت أصدّق أنّني معجزة، سرقنا الأحذية من عند بابه، وضعت قدميّ الاثنتين في فردة حذاء واحدة، وأخبرته بأنّني سأدّخر الثانية. ضحكنا، التقطنا أعقاب السجائر وقمنا بتدخينها. لعبت الكرة. ثم لعب الصبية الكرة بي حين تسبّبت بخسارتهم، تشاجرت مع أحدهم ثمّ أهنته، وأوّل مرة أستغلّ جسدي، قلت له: "لا يمكنك أن تفخر بانتصارك على مسخ أنت أقوى منه".

***

(الصفحة التاسعة بعد المئة)

الرغبة الثانية "الطيران"

اليوم الخميس، السادس عشر من شوّال. رأيتُ بعضَ الأشخاص في التلفاز يقفزون بمظلّاتهم، لم أبذل كثيرًا من الجهد لإقناعِ صديقي بالقفز، فقد كنت أخطّط بحرص لهذا اليوم، أختار كلماتي بعناية وأنا أحكي له القصص عن رجال تمكّنوا من الطيران؛ لأوحيَ إليه أنّ ما سنفعلُه أسطوريًا، وسيصنع منّا بطلَين خارقَين. كان المصعد مُعطّلًا، اضطرّ إلى

أن يحملني ويصعد بي الدرج حتى الطابق السابع عشر. قام بربطي على ظهره كما طلبت، تخيّلتُ أنّني، بمجرّد أن نقفز، ستنبت لي أجنحة، وسأشبهُ مظلّة الهبوط التي تنفتح وتمتلئ بالهواء لتخفّف مِن سرعة سقوطنا، أقنعته بأنّ الله خلقني بلا يدَين، ولكنّه كريم لن يبخل عليّ، لذا أصرّيتُ على أنّنا حين نقفز سيهب لي أجنحة، وسنطير معًا، وسأحقّق نبوءة أمي بوصفي معجزة، قلتُ بيني وبين نفسي: "أو سأنفيها". لم أكن متأكّدًا البتّة. لكنّني كما توقّعت، لستُ بمعجزة. فها نحن لم نطِر، بل سقطَ كِلانا، إلّا أنّ جسده الذي تهشّم تحت ثقلي كالزجاجة، خفّف مِن قوّة ارتطامي بالأرض. عشتُ أنا، ومات صديقي الوحيد الصحيح السليم.

❖ شيخ, يقتل ندمه بصندوق

صعد شابٌ في أوائل العشرينات بطريقةٍ مسرحيةٍ لا تخلو من السخرية إلى المقعد الذي كان يجلسُ عليه، وبصوت جهْور - بعد أن صفّق بيديه ليجذب اهتمام روّاد المقهى – قال: اجتمع أعيان المدينة ذات يوم تحت ضغطٍ من الآباء والأمهات ليتشاوروا في أمر هذه الأرض المباركة التي نجلس فوقها الآن، فما انفضّ اجتماعهم حتى قرّروا بناء مسجد عليها كحَلّ يُرضي الأطرافَ جميعَها. غير أنّ تخطيطَ المدينة العمراني آنذاك حال دون ذلك، فكانَ أن اشتراها رجلٌ من خارج المدينة، وأنشأ عليها هذا المقهى.

قفز الشابّ من أعلى المقعد، وأخذ يتجوّل ببطء، مستمرًّا في سرد الحكاية: قد تتساءلون في أنفسِكم، ما الذي جعل هذه الأرض مباركة؟ يُحكى يا سادة أنّه في زمنٍ مضى في أسواق هذه المدينة، حين كانت إحدى الأمهات مشغولة بتفقّد الذهب عند أحد الصاغة تقفُ على حقيقتِه وزَيفِه، أفلتَتْ من يدها

الذهب الحقيقي." التفت الشابّ إلى الجهة الأخرى، وبصوت تعتريه نبرةُ تشويق أكمل: "أضاعت الذهب الحقيقي، طفلتها التي ابتلعها الزحام وتاهت. ظلّت الأم، أيامًا متواصلة، كالمجنونة، تسعى النهار كلّه في الأسواق بحثًا عنها. فإذا حلّ المساء، تجلس وسط تربة واسعة، كانت آنذاك تفصل بين الأسواق وبعض البيوت المنتشرة عشوائيًا، تنثر التراب على رأسها تارة، وتارة تبسط كفّيها نحو السماء تدعو الله بصوت مختنق أن يعيدَ إليها ابنتها، تُردّد: "لقد أضعت الذهب الحقيقي، يا الله أعِدْهُ إليّ". وفي اليوم العاشر، بينما كانت تنثر التراب على رأسها، رأتها قادمةً برفقة رجل جاء يجول بها في الأسواق، راجيًا العثورَ على أحدٍ يعرفها فيدلّه على ذويها، وإذْ بمَن يشيرُ إليها. صمت قليلًا، وهو يتأمّل صندوقًا كبيرًا، ثمّ أكمل: "كانت هذه هي الأرض التي استجاب الله عليها دعاءَ تلك الأم، فصارت الأمهات يعتقدن بأنّ ثمّة شيئًا مباركًا فيها، بتن يجتمعْن عليها مع أبنائهنّ، ينثرن على رؤوسهم من ترابها لتحيط بهم البركة، وترافقهم طيلة حياتهم. لم يقتصر الأمر على الأمهات فحسب، فحتى الآباء أنفسهم كانوا مؤمنين ببركتها، فبعد إلحاح منهم على الشخص الذي اشترى الأرض، في تخييره بين بناء مسجد فوقها، أو ترك شأنها لهم، اقترح عليهم أن يضع ذلك الصندوق تحديدًا فوق المكان الذي كانت تجلس فيه الأم حين كانت تنثر التراب على رأسها لإرضائهم، هناك حيث غدت تلك البقعة المباركة مُتاحة للناس جميعًا". صعد الشابّ مرّة أخرى إلى المقعد بطريقة مسرحية أكثر سخرية من ذي قبل،

وبصوت يغلب عليه الضحك أكمل: "والآن يا سادة، من لديه أمنية منكم، فليقمْ بكتابتها على ورقة، ثمّ يضعها في هذا الصندوق، وهي، بحَول الله، ستتحقّق، واعلموا أنّ أوراق أمنياتكم شأنها السرّيّة التامّة، فمآلُها الحرق في نهايةِ كلّ شهر".

ثمّة شيخ اشتعل رأسُه شيبًا، كان يجلس على أحد مقاعد المقهى المنفردة، بعد أن سمع حكاية الصندوق يستعيدُها الشابّ باستهزاء على مسامع روّاد المقهى، فقال يحدّث نفسه: "لا أعرفُ كم مرّة سمعت هذه الحكاية حتى بتّ أخطئ العدّ". ثمّ كتب على ظهر المنديل وهو يهزّ كتفَيه بغير اقتناع: "أتمنّى في شيخوختي هذه أن أعود إلى الماضي لأعيد تكويني من جديد". وضع أمنيته في الصندوق، ومضى يتوكّأ على عصاه نحو بيته. على بُعد خطوات قليلة من بيته، كان صبيّ في الحادية عشرة، يجلس منحنيًا على نفسه، بدا كأنّه كان لوقتٍ غير بعيد يبكي بحرقة. تردّد في موقفه، ثمّ بصعوبة جلس إلى جانبه، تريّث قليلًا قبل أن يسأله:

- ما بك، أتحتاجُ إلى مساعدة؟

= لا.

- بإمكانك أن تحدّثني عن سبب بكائِك، لعلّ الحديث يخفّف عنك، لستُ أعرفك على أيّ حال، وإن نفترق، فربّما تعذّر لقاؤنا إلى الأبد.

= لقد سَرقتُ النقود التي تدّخرها أمي لإطعامنا أنا وإخوتي الصغار، سرقتها لأشتري هذا الحذاء. لقد ندمت، وحين أردت أن أعيده لأستردّ النقود، رفض البائع. ستحزن أمي كثيرًا،

وأنا لا أحبّ أن أرى أمي حزينة، لذا لا أستطيع العودة إلى البيت.
بعد صمت طويل، نهض الشيخ ولم يعلّق على كلام الصبي بغير تنهيدة طويلة، خطا بضعَ خطوات شاردًا يفكّر، ثمّ عاد وسأل الصبي:
- أتُجيد الكتابة والإملاء؟
= نعم، أنا متفوّق في دراستي.
- خُذْ هذا المال، أعِدْهُ مِن حيث سرقتَه، واشترِ بالفائض ما تُسعد به إخوتك الصغار. أخبِر أمك أنّك وجدت عملًا مسائيًا. أترى ذلك المنزل هناك؟.. نعم ذا النافذة المفتوحة، لا أدري كيف نسيت النافذة مفتوحة على أيّ حال. غدًا تأتي لزيارتي بعد الرابعة عصرًا، أريدك أن تكتبَ ما أُمليه عليك وحسب.
قالوا: "الخرافة هي سلاح مَن لا سلاح له في مواجهة ما لا قدرة له على مواجهته". لمّا أقبل الغدُ، وحلّت الساعة الرابعة طرق الصبيُّ باب الشيخ، فاستقبله بامتنان: - تفضّل بالدخول، أتشرب شيئًا؟ أنا لستُ بارعًا في إعداد أيّ شيء. أترغب في بعض العصير المعلّب؟ بيتي ليس واسعًا كما يبدو من الخارج، نظيف، ولكنّه لا يضاهي نظافة بيت تتولّى شؤونَه امرأةٌ. لم تقبل بي أيّ واحدة من النساء اللاتي تقدّمتُ لخطبتهنّ، فقرّرت أن لا أعيد التفكير في الزواج ما حييت، يسعدني أن أراك جادًّا ومُحقًّا في التكفير عن ذنبك، يا بنيّ، الندم حين يأتي متأخّرًا، يقتل صاحبَه ببطءٍ. سحب الشيخُ مقعدين إلى طاولة تغطّيها أوراق مكدّسة، وأقلام مبعثرة، وأشار إلى الصبي أن: اقعد، وهو مسترسلٌ في الحديث:

- لنبدأ العمل. لقد بدأت أكتب سيرتي الذاتية في هذا الدفتر منذ مدّة ليست بالقصيرة، حتى ضعف بصري وتعبت، كنت قد توقّفت في منتصفها عند هذه الجملة هنا: "لا أزالُ أذكر" وحين عجزتُ عن إكمال سياقِها، انتقلت إلى ما بعدها. هيّا، اختر أيّما قلم وابدأ... "لا أزالُ أذكر تلك الليلة، قالت لنا أمي: "ناموا باكرًا، السهر لا يورثكم سوى مزيد من الجوع، وفي الصباح سأجد ما أطعمكم إيّاه". لم أنتظر كثيرًا تحت اللحاف حتى نام إخوتي والجوع يمضغهم من الداخل، تسلّلت إلى الخارج. كنت قد قرأت، وأنا أتجوّل مع رفاقي، بعد الانصراف من المدرسة، قرأتُ إعلانًا عن افتتاح مطعمٍ وسط المدينة، والعَشاء مجّاني لكلّ من يحضر حفل الافتتاح. نصف ساعة تحت لحافي لم أكن أدّعي النوم فيها، بل ربّما نمتُ فعلًا، فقد حلمت بمائدة ممتدّة موفورة بأشهى المأكولات، كان الحلم قريبًا ما يكفي لأشعر بمذاق الطعام في فمي. وصلت قبل انتهاء الاحتفال بدقائق. حين قام ذلك الذي دعانا إلى العشاء عبر مكبّر للصوتِ، وددتُ لو نتشارك أنا وأمي وإخوتي الصغار هذا الحلم، ثمّ نسيتُهم تمامًا حين رأيتُ أصنافًا من الطعام لم أرها حتى في حلمي ذاك، أكلتُ وتذوّقتُ كلّ صنف، واندفعتُ اندفاع شخص لم يذقْ لقمة واحدةً منذ أيام، كلّ ذلك مِن دون أن ينتابني أدنى شعور بالذنب. كنت آخر المغادرين، وربّما أوحتْ ثيابي الرثّة مع طريقة تناولي الطعام إلى النُدُل والعاملين بأنّني قد أقبل أن أساعدَهم في التنظيف مقابل بعض المال، فوافقت. بعد أن انتهينا، بادرَ صاحب المطعم - ربّما ظنّ

بأنّني مشرّدٌ – وعرض عليّ أن أعمل غاسل أطباق في مطبخه، ووعدَ بأنْ يؤَمّن لي غرفة للسكن في أعلى المطعم، بمرتّب بدا عاليًا بالنسبة إلى مراهق مثلي، فقبلتُ. لم أرجعْ إلى المنزل في تلك الليلة، ولم أرجعْ أبدًا. ورأيتُ المدرسة ليست إلا مضيعة للوقت، وتوقّف اهتمامي بأن أحظى بجائزة المتفوّقين مِن مستوى المدينة لكي أُسعد أمي، كذلك رفاقي لم أعد ألتقي بهم، وإذا صدفت أن رأيتهم، أجدُني حريصا على تغيير اتّجاهي.

رأتني أمي مرّةً، بعد سنة ونيّف في الشارع، بعد أن ظنّت طويلًا أنّي خُطفت وتمّ اغتصابي، وربّما تمادى ظنّها أنّي قُتلت ودُفنت حيث أنا. مسكت بي بقوّة، احتضنتني وغمرتني بالقبلات، ولكنّني دفعتها عنّي، أخبرتُها بأنّني بتُّ أكبر من أن تتولّى رعايتي، يكفيها عناء إعالة إخوتي الأربعة، ثمّ اختفيتُ، إلى أنْ شكّت في صحّة لقائنا، وتأرجح اعتقادُها فيه بين كونِه واقعًا ومحضَ حلم.

عُرض عليّ أن أنتقلَ إلى فرع آخر في مدينة أخرى، ووجدتُها فرصة جيّدة لأنتقل إلى عالم آخر، مرّت السنوات سريعة، لم أر فيها أمي وإخوتي أبدًا. كنت أنمو بوتيرة أسرع، أهّلتني خبرتي الطويلة في شؤون المطعم أن أرتقي من غاسل أطباق فيه إلى إدارته".

ربّما كانت غصّة حادّة، أو تنهيدة حارّة، جعلت الشيخَ يتوقّف عن الحديث برهةً من الزمن، أشار إلى الصبي أن يتوقّف عن الكتابة:

ـ سأدعُك ترتاح قليلًا؛ أرأيت يا بنيّ هذه الأموال كلّها التي جمعتُها لأُسعدَ نفسي وأحصل على كلّ شيء أريده؟ لم تشترِ لي ضميرًا مرتاحًا، فقد كان أهلي طَوال ليالي السنوات الماضية يزورونني في أحلامي، ولم تكن زياراتهم وديّة أبدًا، فقد كانت تُحيل أحلامي كوابيسَ جعلتني أدمن المسكّنات.
ـ أجِبني! هل أعدتَ المال الذي سرقته؟
= نعم.
ـ حسنًا فعلت، لا أريد لك مصيري نفسَه.
ثمّ أكمل يحدّث نفسه: سنوات وأنا أهزأ بقصّة ذلك الصندوق، ربّما تحققّت أمنيتي التي وضعتها فيه أمس، وأنا أجهلُ أنّها ستنفُذُ إلى هذا الحدّ البعيد، إلى درجة أن أرى نفسي قبل تسع وسبعين سنة، وأن أعيد إصلاح نفسي بسببه.
استمرّ الشيخ في إعادة تكوين نفسِه مِن خِلالِ ذلك الصبي، غير أنّ الخرافة تظلّ خرافة مهما بلغ عددُ المؤمنين بها. فالمشهد نفسُه تكرّر بعد سنوات قليلة، حين أوصى له بكلّ ما يملك، ونسي أن يكتب في وصيّته: "إن حذا حذوي، لا يصيبُ من أموالي شيئًا".

❖ مدينة أمي السرية

الطفلة التي تكتب اسمَها على الورق، ثمّ تصنع منه قوارب تتركها تُبحر في ماء الغسيل. حين سألت المعلّمة التلميذات: من سافرت منكنّ هذا الصيف؟ كانت أولى من رفعَتْ يدها منهنّ باندفاع. ولمّا سألتها: إلى أين سافرتِ؟ ردّت: إلى المكان الذي تذهب إليه أمي وهي تغسل الثياب، فتشرد وراءَ أفكارها، وتنأى عن حديث جدّتي التي تغضب وتصرخ في وجهها: إلى أين ذهبتِ؟
تبتسم أمي، وتُجيبُها صمتًا.

❖ التمثال الذي بُترت ساقه

يروقُ لي أن أعبرَ كلّ يوم إلى المدرسة من بين ساقَي التمثال الهائل الذي زُيِّنَ به الشارع حديثًا، لا أدري ما المتعة التي كنت أجدها في القيام بهذا الفعل، ربما لظني أن ما أفعله يبدو عملًا بطوليًا، بخاصّةٍ أنّ بقيّة الأطفال يخافون حتى المرور بالقرب منه. مُعلّمتي في الصف حذّرتني وقالت لي إنّ ما أفعله يُعتبر فألًا سيئًا، وينبغي لي ألّا أكرّره. غير أنّني لم أقتنع بذلك، وكنت أعكفُ عليه كلّ يوم، وفي الأخصّ حين علمت - بعد إلحاحي على معلّمة التاريخ بالأسئلة - أنّ التمثال المنحوتَ يمثّل جنديًا بطلًا أنقذَ العاصمة من هجوم جوّي في الحرب التي سبقَتْ ولادتي. وقد صُنع تكريمًا له بعد اشتهار أمر استشهاده.

بعد انتهاء العطلة التي قضيتُها في بيت جدّي في القرية، لم يكن أوّل يوم في المدرسة جميلا كما توقّعته؛ ليس لأنّني تأخّرت وعوقبت على تأخّري؛ بل لأنّ أحدهم قام في أثناء

غيابي عن المدينة بإزالة ساق التمثال اليمنى بطريقة فنية. فالساقُ لم تبدُ محطّمة؛ بل بدَتْ مبتورة بشكلٍ مهذّب. بقيتُ واقفًا تتأكّلني الدهشة، فأجدُني أدورُ حوله نصف دورة ثم أقف وأتحسّسه، مضت نصف ساعة مِن دون أن أشعر بالوقت يخطفني، وأنا غارقٌ أتساءل عن سبب هذا التشويه الذي اعترى بطلي، حتى كدتُ أعتقدُ أنّه سينطق ويخبرني. لم أجد بُدًّا من اللجوء إلى مكتبة المدرسة لأعزّزَ فهمي، فقد ضاقت معلّمة التاريخ ذرعًا بأسئلتي المتوالِد. طلبْتُ متلعثمًا من أمينة المكتبة أن تساعدني، كانت قد تجاوزت الستّين من عمرها، وربّما شهدت الحرب، باعتبارِها كانت تُماثلُ عمري اليوم، آنذاك.

عندما رأتني مشدودًا إلى الاستزادة مِن التعرّف إلى صاحب التمثال، أخرجَتْ كتابًا من درج مكتبها الخاص بأبطال الحرب، ودفعتْه إليّ مفتوحًا في الصفحة الخاصّة به. في الصورة التي اختارها مُنشئ الكتاب، كان بطلي يقف بساقٍ واحدةٍ متّكئًا على ذراع المقعد!

ظننتُ أنّي فهمت، إلّا أن شعورًا بأنّ ثمّة شيئًا ناقصًا لازمني مدّة طويلة، اضطرّني إلى أن أعود إلى المكتبة مرّةً أخرى. كانت أمينة المكتبة تقفُ أمام أحد الرفوف، منهمكةً بجرد الكتب وفاقًا لبيانات جدول مخطوط على لوح في يدها. عندما لمحَتني، أسرعَت، وكأنّها تُسابقُ سؤالي، وأشارت قائلةً: تجد الكتاب في درج مكتبي، ما تفتّشُ عنه تعثر عليه في الصفحة ٤٧.

تراجعتُ ببطء متوجّهًا إلى مكتبها، أخرجتُ الكتاب من الدرج، مباشرةً، فتحتُ الصفحة التي ألمحَتْ إليها، وتعجّبتُ مِن وضعها فاصلًا للصفحات، مشغولًا بالكرتون المقوّى، تعيّن به الصفحة 47، حيثُ الصورة نفسُها والكلامُ نفسُه، لا شيء جديد.

أغلقت الكتاب، وكدتُ أخرج خائب الرجاء، لولا تنبّهي إلى بريدها المفتوح فوق مكتبِها، وعليه اسم الأب الذي يحتويه اسمها الثلاثي، والذي كان اسم بطلي نفسه، صاحب التمثال الذي بُترت ساقه.

❖ فرج

1

قبل موعد المرتّب الشهري بيوم واحد، قرّر "فرَج" أن يقدّم استقالته. سأله مدير المالية قبل أن يُصادقَ على قرار الاستقالة: ماذا بشأن مرتّبك؟ ردّ عليه: أعطِهِ صبيّ القهوة.

2

كان صبيّ القهوة، آنذاك، في مطبخه الصغير الذي لا يتعدّى زاوية مواربة من المبنى، يشرُدُ مُحدّقًا في سقف المطبخ، يحسب المبلغ المتبقّي معه ليُكملَ ثمنَ تكاليف علاجِ والدِه الذي ينتظرُ إجراءَ عملية زراعة كِلية، فقال يحدّث نفسه: لابدّ للمبلغِ مِن أن يكون جاهزًا، فقد يجد الأطبّاءُ مُتبرّعًا في أيّ لحظة.

3

في صباح اليوم التالي، قبل أن يخرج "فرَج" إلى عمله الجديد الذي قدّم الاستقالة مِن أجله سأل أمّه: هل تريدين شيئًا أحضره لك معي؟ ردّت: سلامتك. وفيما يبدو كان طلبها صعبًا للغاية. فقد تعرّض لحادث سيارة، ومات فور إحضارِه إلى المشفى.

4

خرج صبيّ القهوة من مكتب مدير المالية بوجه باشٍ، وعرّجَ على مكتب مدير شؤون الموظّفين؛ ليسألَه عن رقم هاتف الموظّف الذي ترك له راتبه. فقد رغب بشدّة في أن يشكره، لأنّه فرّج عليه كربته.

5

في اللحظة التي أخرج فيها صبي القهوة هاتفه النقّال من جيبه؛ ليُهاتف "فرج"، تلقّى اتّصالًا من الطبيبة المسؤولة عن قسم زراعة الكلى، أخبرته فيه أنّ المشفى استقبلت صباح اليوم شابًّا في أواخر العشرينات من عمره، تُوفّي فور إحضاره، وعلى بطاقته تأشيرة تفيدُ الموافقة على التبرّع بالأعضاء، عليه أن يحضر حالا ومعه ثمنَ تكاليف العمليّة، قبل أن تذهب الكِلية إلى شخص آخر.

❖ هوس

اتّجه نحو الحيّ الذي تقع فيه الأرض الممنوحة له، مِلؤُه السعادة، يحمل تصميمه الخاصّ ببيته الذي عمل عليه طَوال أعوام دراسته كمشروع تخرّج في الجامعة. إلّا أنّه تفاجأ بنظام يُلزم بتصاميم مخصوصة للبيوت؛ فلا بدّ من اللون الأخضر العشبي للجدران الخارجية، ولا بدّ للشرفات مِن أن تكون متقابلة، والغرف أن تكون ذات أبعاد متساوية مطلية باللون الأزرق الفاتح، كذلك أن تُصمَّم النوافذ مفتوحة على الخارج، حتّى الأبواب لزِمَ أن تكون مزخرفة بالكتابة العربية، مع ترك الحرّيّة للناس في اختيار ما شاؤوا من العبارات شرطَ أن تحمل الوُدّ.

اعترض في أوّل الأمر مستندًا على وظيفته مهندسًا معماريًّا، ورأى أنّه غير مُلزَم باتّباع نظامهم التقليدي السائد، غير أنّه لم يجد بُدًّا من الانصياع لهذا النظام الذي رآه غير منصف أبدا.

وانبرى لذلك يبحث عن حيلة تجعل بيته مختلفًا عن باقي البيوت. فكّر طويلًا وهو يحدّق في التصميم المعطى له، ثمّ

قرّر جعل الشرفه مائلة، فلا أحد من الخارج يلاحظ ذلك، فإنّما هو وحده، حين يجلس فيها، يرى ميلان الشرفات المقابلة له.
ترك اللون العشبي كما هو عليه، غير أنّه أضاف رسم أزهار صفراء صغيرة في أسفل الجدران، لا يلاحظُها سوى من يُمعن في الاقتراب منها. استغلّ الإضاءة لتبدو الغرف باللون المطلوب؛ فجعل الأبعاد غير متساوية بسنتيمترات قليلة، جعل النوافذ تفتح على الخارج كذلك، مع إمكان فتحها على الداخل بمزلاج مزدوج. وجاء دور تزيين الباب! كانت مشكلته مع الكلمات والعبارات. ماذا يكتب على بابه؟ فهو يطيب له أن يعكس وُدًّا. مع هذا، فقد غلبت رغبة خرق النظام في داخله، واختار بيتًا من الشِعر يفخر بالعزلة والزهد في العلاقات، باعتبار ندرة من ينكر جمال الشعر، بغضّ النظر عن معناه.
في نهاية المطاف هو إنسان مثلهم، يشتهي أن يتناول فطور الصباح في شرفته، على عادة الناس. وإن كان ينتابه شعور بالزَهو؛ ذلك لأنّه يعرف في قرارة نفسه، أنّه الوحيد الذي خرق النظام سرًّا. وعندما يلقي أحدهم عليه التحية، يجفل كما لو أنّه رأى وحشًا، لأنّه حين يرفع رأسه ليردّ التحية يخيّل إليه أنّهم على وشك السقوط، فيقفُ فزِعًا يلوّح لهم كغريق يطلب النجدة، ثمّ يتخشّب فجأة حين يتذكّر أنّ سبب ذلك ميلانُ شرفته!
في الآونة الأخيرة، صار جميعُ جيرانه يتهامسون فيما بينهم الأحاديثَ عنه، ويظنّون بأنّه مجنون أو به مسّ، فتوقّفوا عن إلقاء التحيّة عليه. وربّما عزم واحدهم علي زيارته، فتجده، قبل أن يطرق الباب، يدير ظهره، ويضرب كفًا بكفّ، ويحوقل،

بعد أن يقرأ بيتَ الشعر الذي بسّط زخرفته على بابه تسهيلًا للقراءة.
صار وحيدًا، يتجنّبه الجيران كما لو أنّه محكوم سابق. تراه يجلس في شرفته، ولا أحد يلتفت إليه، ما خلا بعض الطيّبين، من احترموا رغبته الخاصة بالعزلة، وربّما اكتفوا بهزّ رؤوسهم تحيّة وتبسّمًا إذا ما مرّ بالقرب منهم، وهو في طريقه إلى العمل.
الأمطار موسمية في تلك المدينة التي يقع في منتصفها ذلك الحي الذي يظهر في الصور الجوية كحقل أخضر ممتدّ.
استمرت الأمطار طوال الليل. وفي الصباح خرج جيرانه إلى شرفاتهم كالمعتاد، تنفّسوا رائحة المطر مختلطةً برائحة الأزهار الصفراء الصغيرة التي رسمها أسفل جدرانه، فقد ساعدها المطر على النموّ لتتسلّق الجدار وتطلّ عليه في شرفته!

❖ الرابح يخدم إلى الأبد

كانوا خمسة. الطريق الترابي الذي يفصل بين بيوتهم يتذّكر ماضيهم، أكثر ممّا يتذكرونه عن طفولتهم في الوقت الحاضر. فقد فرّق شملَهم واحدة من أبسط ألعابهم الصبيانية "مَن يستطيع كتم أنفاسَه أطولَ؟".

لعبة، كانوا يعتمدونها للتسلية والتحدّي بين حين وآخر، يُكافأ الرابح فيها بأن يكون محطّ خدمة الجميع طوال اليوم التالي.

مساء أحد أيّام الجمعة، كانت الشمس على وشك الغروب، حين استنفدوا ألعابهم كلّها لتمضية النهار، صرخ أقصرهم مقترحًا: "كتم الأنفاس!"، فوافق الجميع.

ثم بدأ العدّ العكسي... عند الوصول إلى الرقم واحد كُتِمَتِ الأنفاس، وفي حدود الدقائق الثلاثة الأولى تنفس الجميع.

الجميع! لا. يبدو أنّ روح التحدّي عند واحدهم عظمت أنفاسها.

عشرُ دقائق، عشرون، ساعتان، ثلاث ساعات... خمسة وأربعون سنة. قُطعت أنفاسه!

عادة، شروط ألعاب الصغار لا تتغيّر، لكنْ، معهم قُصمت هذه العادة، وتغيّرت شروط اللعبة، وعُدّل بقوانينها، فصارت المكافأة أن يخدموا الرابح إلى الأبد. حين كبر الأربعة وأنجبوا – من دون اتّفاق سابق- سمّى كلّ منهم ابنه الأوّل باسم "الغائب".

❖ لا تدع خيالك يؤلمك

تأبّط كرة وهميّة وانحنى ليربط حذاءه، طوى طرف جوربه بالطريقة نفسِها التي يرى شقيقه يطويها حين يخرج للعب الكرة ورفاقه. قال: أريد أن أشارككم اللعب. ثمّ وضع يديه على خصره، وشكّل بهما قوسًا، تمامًا كما اعتاد أن يفعل لاعبه المفضّل في الفريق الذي يشجّعه. انتظر حتى سمع صافرة الحكم، ثمّ ركل الكرة. صفّق لنفسه حين سجّل الهدف الأوّل. ضرب كفّ صديقِه بكفّه عندما سجّل الهدف الثاني قائلًا: كفًّا بكفّ؛ معبّرًا عن سعادته.

في المساء، في صعوبة بالغة حملته أمه مِن على مقعده المتحرّك، فهو يزداد نموًّا يومًا بعد يوم؛ حتّى عجزت عن حمله بمفردها.

وضعته في حوض الغسيل؛ لكي تساعدَه على الاغتسال، وكعادتها راحت تتفقّد كلّ زاوية في جسده، خشية أن تُصاب بعض مواضع جسده الحسّاسة بالقروح؛ جرّاء جلوسه. أخافتها الكدمة في طرف فخِذِه الأيمن، فسألته: كيف أُصبت بها؟

أجاب: لا عليك! لقد لعبت عصر اليوم الكرة مع رفاقي، وربّما أصبت بها بسببِ ركلة خاطئة من أحدِ اللاعبين!

❖ لا تغسل وجهك

لا تغسلْ وجهك!
ثمانية وعشرون عامًا، وفي كلّ يوم تقول لي أمّي - حين أستيقظ من النوم: "اغسل وجهك، وتعال افطر".
أمّي التي لم يبق لها من البصر إلا قليل، قالت لي في ذلك اليوم: "تعال، لا تغسل وجهك!".
وقفتُ حائرًا أنظر إليها حتى دعتني لأقتربَ أكثر، تحسّست وجهي، قبّلت جبيني وبعد أن اطمأنّت، قالت: اغسل وجهك الآن.
قالتها ومالت إلى ذراع الكرسي. وقد ظننتها غفت، غير أنّها رقدَت إلى الأبد.
من حيث لا أدري، بعد شهرَين من القلق والحَيرة، استيقظت يومًا، وراق لي أن أجلس على المقعد نفسِه حيث ماتت، فخاطبتُ نفسي أقلّدها: "تعالَ؛ لا تغسلْ وجهك".
على الجدار المقابل للمقعد الذي تقمصت فيه دورها، صورة لأبي الذي تُوفّي شابًّا في مثل عمري. بدت غير واضحة بالنسبة إلى شبه ضرير كأمّي.

ولأنني أشبه أبي، كنتُ الصورة قد سُحبتُ نحوها, تحسست وجهي، حفظت ملامحي ثمّ ذهبَتْ تبحث عن أبي على بيّنة في الجنّة.

❖ أيام مستعملة

نحن نكرّر أنفسَنا بشكل مُريع. كلّ يوم أستيقظُ في الرابعة فجرًا أقيم صلاتي، ثمّ أجهّز الفطور، أوقظ الصغار وأراقبهم يمضغون الطعام ببطء، يرتدون ثيابهم، أتأكّد من أزرار قمصانهم قبل أن أتبعهم بنظري حتى يبتلع المنعطفُ باص المدرسة.

هل أنا حادّة؟! هل لديّ نتوءات وأشواك كالقنافذ تمنع الاقتراب مني؟! لم يحتضنني أحدٌ من أبنائي يومًا قطّ، ولا أسمعني عبارة امتنان أو تشكّر؛ من قبيل: "شكرًا، أمّي؛ لأنّك جزءٌ من حياتنا". لم أسمع من أحدهم أيّ كلمة تدلّ على أنّه يُكنّ لي الحبّ، ولو على سبيل استمالتي طمعًا بموافقتي على أمرٍ ضروري أو مُلحّ.

اعترتني فوبيا الخروج من المنزل، أيّامي كلّها مستعملة، تُكرّر نفسَها مرةً تلو أخرى. لم يكن هذا الاكتشاف عندي فُجاءة ، لكنْ، كلّما حاول الملل أن ينبّهني، جاء الأبناء من

مدارسهم، وسهوت بالعمل. يحين موعد الغداء، بعد ذلك يليه موعد العشاء، ثمّ يأتي أحدهم - في مكان سرّي في داخل الساعة- ويضغط زرّ "إعادة تشغيل اليوم"، ولو أنّه ينسى مرة تغيير مُسمّى اليوم من الأحد إلى الاثنين، لاكتشفتُ أنّني أدور في حلقة اسمها يوم، وليس أسبوعًا.

على سبيل كسر هذا الروتين، قرّرت مرّة أنْ: لا غداء اليوم. وانتظرت أن تحدُث مشكلة تضع بعضًا من نكهة مغايرة في طبق حياتنا المتلازمة الصوَر؛ فأجدُهم غاضبين منّي، أو يخامرهم ظنٌّ بأنّني مريضة؛ فيسألوني عن حالي؛ فأشعر، في الأقلّ، بأنّني أحتلّ جانبًا من حياتهم، غير أنّ أيامهم مطبوعة بعدم الاكتراث، وهم في ذلك يُشبهون والدهم. وكعادتهم، لم يأبهوا؛ فقد اغتسلوا وناموا.

بقيتُ وحدي في ذلك اليوم، أسهر على غير عادتي، تؤرّقني فكرة إيقاف تناسخ أيّامي، وراحت تُلح عليّ بشدّة يومًا تلو الآخر.

وفي أحد الأيّام: الأحد.. الثلاثاء.. الخميس! لا أدري - في الأصل، لم يكن للمسمّيات، عندي، أيّ أهمّيّة - كتبتُ لهم رسالة، مفادها عدم قدرتي على احتمال الحياة معهم.

ابني الأصغر، من بين أبنائي، أوّل من يعود إلى المنزل. وجد الرسالة على طاولة الطعام، فقرأها من دون استيعاب الموقف! فتّش عنّي، مناديًا بصوتٍ تخنقه الغصّة يتردد صداه في أنحاء المنزل كلِّه، وحين لم يجدْني جلس على عتبة الباب ينتظر الباقين، وهو يبكي كطفل لم أعرفه بهذا القدر من الفزعِ، وكأنّه لم يستشعر أيّ أمان في خارج حضن أمّه. حين

حضر والده وإخوته استقبلهم باكيًا ناعيًا لهم خبر اختفائي من المنزل، فصُعقوا، وصرخوا، وتشاوروا فيما بينهم خائفين. أكل الهلع ملامحهم حتى شككت: هل هناك سببٌ آخر غير هجري لهم يُقلقهم! سألوا الجيران عنّي، وبلّغوا الأمن اختفائي، لم يخطر على بال أحدهم أن يبحث عنّي في حجرة المؤونة في زاوية المطبخ، كنت أجلس وقدماي مُمدّدتان، أتّكِئ بظهري على رفّ المعلّبات، وقد مال رأسي إلى داخل الرفّ الثاني، لم تكن السكّين التي قطعتُ بها شرايين معصمي آخر ما حمَلَتْ من همٍّ منْ سيقوم بغسلها، فقد أنهيتُ أعمال المنزل كلّها، قبل أن أفعلها، بل الغبار المتراكم في أسفل الرفّ، كيف لم أتنبّه له سابقًا وأنظّفه؟ فحتى آخر نفس لي كنت أفكر فيهم وفي نظافة منزلي، ولولا أنّ خيط دمي الذي استغرقه الأمرُ طويلًا ليعبر من تحت الباب لتنبيههم قبل فوات الأوان، لكنت الآن بينهم أستعدّ لتكرار أيّامي، ولم أكن لأسمعهم في الليل يبكون بحرقة في أسرّتهم، ولم أكن لأرى والدهم يتصفّح ألبوم العائلة ويحدّق طويلًا في صوري...

لم يبقَ ثمّة مجال للعودة، الأمّ التي تذهب إلى السماء لا تعود.

❖ عائلة الأشياء

قرّرتُ، فجأة، أن أصبح كاتبًا. بحثتُ مليًّا عن فكرة ما أدخل من خلالها عالَم الكتابة، لم أجد سوى المعاناة! ممّ أعاني؟ الوحدة.

ولأنّ أغلبَ الكتّاب المبتدئين يُحاولون الخوضَ في تعريفات جديدة للأشياء، كتبتُ توطئة:

"الوحدة أن تضع الحلوى التي تُحبّها في مكان ما، واضح بالضرورة، ثمّ تعود إليها بعد مدّة لتجدها كما هي، لم يسرقها أو يقضم شيئًا منها أحد، ولا حتى النمل". لكي أكتب، عليّ أن أشعر تمامًا بما كتبت! وعلى سبيل تعزيز شعوري بالوحدة، جرّبت أن أعلّق نفسي بمسمار في الجدار؛ لأبدأ وحدتي في صحبتي أشيائي الصامتة، ساعة الحائط، الخزانة، الطاولة، السرير والزهريّة؛ لنبدو وكأنّنا عائلة كبيرة، أو من قبيل الأصدقاء. أنا صامت طَوال الوقت؛ وعلى أيّ حال لستُ

بحاجة إلى أذني حين أكلّم نفسي، تمامًا كما تفعل الأشياء حولي. أنا والأثاث نشكّل عائلة صامتة، إيماني العميق بهذا جعلني أشعر بالطاولة، فقد توقّفْتُ عن وضع إبريق الشاي الساخن مباشرة عليها، كذلك قصّرت مدّة الجلوس إلى المقاعد، وتعدّى ذلك إلى عدم تجاوزي للنوم على السرير أكثر من تسع ساعات. أنا لا أحتمل نفسي، فكيف لهذه الأشياء أن تفعل. أحيانًا أبدّل مكان الخزانة، وأحرّك الكراسيّ؛ لأجعلها تشعر بأنّني لست أزيد عليها شيئًا حين أتحرّك. آمنتُ بأنّ الشعور المتبادل مع الأشياء يجعل منها عائلة، فأنا حين أتعب يستقبل الكرسيّ تعبي، تمامًا كما يفعل السرير حين يدهمُني النعاس.

اليوم، تحديدًا، في الثاني عشر من أغسطس، انتهت مدّة إقامتي في هذه البلاد. حزمتُ حقائبي كما حزمتها أوّل مرّة تاركًا عائلة بوجوه حزينة مبلّلة خلفي، أتتبّع أحلامي إلى أماكن لا "أين" لها. اليوم، أحزم حقائبي وأنظر إلى عائلتي "الأشياء"؛ مثل سمكة أُخرجت من مائها. كتبت على المنديل: "لماذا كُتب علينا الوداع؟" أسهبتُ، وأنا أرى عائلتي تُباع فردًا فردًا في المزاد، ساعة الحائط، مقعدي الهزّاز حتى وسادتي. بعد ساعتين، في المطار تحديدًا، قبل أن تُقلعَ الطائرة تحسّست قدمي، شعرتُ بها وقد بدأت تتخشّب! سأكتب عن "قوّة الحنين" قبل أن أتخششـ.... .

❖ 12 ساعة من الحرية

(الساعة الحادية عشْرة مساء)
حين أغلق شقيقُه الباب، بعنف، بعد خروجه، ارتعش، متصوّرًا أنّه باب زنزانة أغلق عليه. الذي آلمه أكثر هو انزعاجُ شقيقه منه، فقد ظلّ ينتظره حتى وقت متأخّر من الليل، وذلك خارج بوّابة السجن؛ ليوصله إلى شقّته بعد إطلاق سراحه المفاجئ.
بجلوسه الطويل، بدا كأنّه ممثّل انتهى للحال من تأدية دور السجين، فجلس على الأريكة ليرتاح. منفضة السجائر بدأت تلفظ الرماد، ولولا فتحة الهواء لاختنق بدخان سجائره. فبُعَيد كلّ دقيقة، راح يتحسّس يديه؛ ليتأكّد مِن أنّه غير مقيّد.
نهض يركل قيودًا توهّمها تكبل قدميه، دخلَ غرف الشقّة كلّها، ركض في الممرّات، فتح الباب ووقف على العتبة. قال لنفسه وهو يضرب صدره: "لن تخطو خطوة واحدة إلى الخارج، السجن لا يزال هنا في الداخل". اختلطت عليه الأصوات: مذيعة، أغنية، صراخ، موسيقى. يُقفل التلفاز. مدّة سبعة عشر عامًا، لم يسمع سوى صوت أشياء تجرّ في

الممرّات، صوت صنبور الماء يبكي معه عليه قطرة.. قطرة. وأنين؛ تساءل مخطّطًا لحياة مشابهة إن كان في مراكز التحميل في الإنترنت أصوات أنين بصيغة mp3!.

(منتصف الساعة الحادية عشرة مساء)
فتح الهاتف المحمول، الذاكرة فارغة بلا أسماء وأرقام، حين أعطاه شقيقُه إيّاه أخبره أنّه للطوارئ، والذاكرة الفارغة رسالةٌ مضمرة مفادُها: "نحن إخوتك وأهلك بالاسم، لسنا للطوارئ" فهمَها جيّدًا. طلب رقم الطوارئ الخاصّ بالدولة للإحساس بأنّ طرفًا آخر في الحياة من الممكن أن يتجاوب معه، استمع للمجيب يسأله عن حالته الطارئة، ويكرّر السؤال باهتمام، ابتسم بحزن لاهتمامٍ مفاجئ لم يحظ بمثله منذ مدّة طويلة وهمّ أن يقول: "أنا على قيد الموت منذ سبعة عشر عامًا.. أنقِذوني رجاء". ولكنّها لم تعبر حنجرته أبدًا، فأغلق الخطّ. منتصف الليل، السرير مريح جدًّا، والوسادة ناعمة.
الدفـء...! ثمّة شعور بالاحتواء بعثه هذا الدفـء، أبكاه، ولم يستطع النوم، نهض من السرير وتمدّد على الأرض الباردة، غفا غفوة طويلة حتى منتصف الساعة الثانية بعد منتصف الليل، سمع صوت بعوضة تحوم حول رأسه.. بعوضة، خلال السبع عشرة سنة الماضية لم تزُرْهُ إلا بعوضةٌ واحدة واختفت فجأة، ربّما جاءت لتُلقي عليه التحيّة كصديق قديم. ظلّ يراقبها على ذراعه الأيمن، مدّة عشر دقائق، وهي تمتصّ دمه، وقد يكون فعل ذلك مِن باب الحفاوة.

(الثالثة صباحًا، البعوضة اختفت!)
بينما هو لا يزال مُمدّدًا يحدّق في السقف – وهو يقرص نفسه قرابة الخمسين مرّة ليتأكّد مِن أنّه لم يجد فرصةً ليتسلّل إلى حلم أحد المساجين الجدد بالحرّية- تدخّل أذان الفجر للحدّ من شعوره بالضياع، وبالغربة. فقام وتوضّأ، بعد خطوتين نحو السجّادة، عاد إلى صنبور الماء، فتحه قليلًا وأغمض عينيه كمن يبتهل، يستمع إلى صوت قطراته المتكاسلة، تدخّل أذان الإقامة هذه المرّة، صلّى الفجر، أطال في سجوده، وكأنّه بعث روحه إلى السماء، وهو ينتظرها أن تعود.

(السادسة صباحًا)
المطبخ مليء بالأشياء الحادّة الجاهزة لأن تفتح ثقبًا في جسده؛ ليمنح دماءه حرّية الهرب.
بخصوص الإفطار! تأمّل مليًّا قائمة الطعام الطويلة المندرجة في مُسمّى الإفطار. تناول شيئًا من الجبنة والخبز، ولكنّه بصق الشاي لغرابة طعمه.

(السابعة صباحًا)
ورقة وقلم، تمنّى لو أنّ هناك شخصًا آخر يمسك بيده، كما كانوا يفعلون؛ ليرغموه على توقيع أوراقهم، أمّا هذه المرة؛ فلكي يكتب، ليس عن شيء محدّد، وإنّما؛ ليكتب، وحسب.

(التاسعة صباحًا)

تسع عشْرة ورقة ممزّقة على الأرض، وثلاث عشْرة على الطاولة حبلى بالكلام, جمل طويلة، متراصّة بشكل يوحي بأنّ ما كُتب دراميّ وفاجعٌ إلى حدّ مؤلم.
في منتصف العاشرة صباحًا، أصابته نوبة المشي المعتادة، اشتاقَ إلى صوت السلاسل في قدميه، وإنّما ما مِن سلاسل!
في الحادية عشْرة صباحًا فتح التلفاز، سمع المذيعة تُصرّح بمقتل شخصيةٍ بارزة في ظروف غامضة، رفع الهاتف المحمول، اتّصل عبر رقم الطوارئ: "أنا قتلته، أعيدوني إلى السجن"!

❖ مرارة السكر

آخر جملة قرأها في الرواية قبل أن يطوي الصفحة: "الغُربة وُلدت في العواصم أوّل مرة".

تجاوز رغبته في البكاء بصعوبة، ثمّ نام.

المنبّه! يكادُ يكونُ أحد أكثر الأشياء التي اتّفق الناس جميعًا على كرهه في الحياة، بخاصّة حين يأخذ دور الأمّ. اعتاد أعوامًا مديدةً أن توقظه أمّه، ثمّ زوجته، لتستقبله رائحةُ القهوة والخبز اللذيذ، يجد قمصانه نظيفة وقد تمّ كيّها بعناية، ترافقه الأمنيات اللطيفة بالتوفيق، يخفق لها قلبه وهو يتخطّى العتبة.

في المقهى، وبصوت هشّ، طلب القهوة وقطعة الوفل "الكعك" التي اعتاد أن يطلبها كلّ يوم منذ عام ونصف العام، لم يتغيّر شيء سوى أنّه منذ أن استيقظ هذا الصباح، وإحساسه مُضاعفٌ بالأشياء. قبل نصف ساعة، كان جالسًا إلى جانب السرير يبكي كطفل في السابعة من عمره، واضعًا رأسه بين ركبتيه بعد عدّة محاولات فاشلة لنظم الخيط في الإبرة، ليعيد رتق زرّ قميصه الذي سقط.

بلا أيّ اختلاف، تمرّ الأحداث به كلّ يوم، كما مرّت في الأيّام والأشهر السابقة، كأنّما هي شريطٌ مستنسخٌ, يغلّفها الملل... فالمقهى نفسه، وعلى الكرسيّ نفسه يجلس...! كذلك الطاولة، والكوب، والملعقة، ورائحة القهوة هي نفسها، حتى الوجوه الناعسة المتكرّرة التي تنتظر القهوة لتغسل بقايا النوم عنها جيدًا. كلّم نفسه وهو يقلّب قطعتَي سكّر بين يديه: "قطعة سكّر لا تشكّل فرقًا أمام مرارة الغربة".

انتبه إلى أنّها لم تكن بالشكل المكعّب نفسِه الذي اعتاده؛ فبعضها أخذ شكل قلب، وآخر أخذ شكل نجمة. بخوف مشوب بالتساؤل، حدّث نفسه قائلًا: ما الذي يحدث معي اليوم؟ قد تكونُ إشارات، زرّ القميص وقطع السكّر، وكأنّه عليّ أن أختار هذا الصباح بين قلبي ومستقبلي؟ أيّهما سيذوب في قعر الفنجان

بعد تفكير طويل، كما لو أنّ ثمّة حربًا قد احتدمت في داخله، كان الخِيار أمامه معقّدًا، ليست المسألة قطعة سكّر محض، بل قرار مصيري، فكّر: قلبٌ أم نجمة؟!

وضع قطعة واحدة في الفنجان، شرب قهوته وهو يبتسم بسرور تامّ، لم يبتسم بهذا الصدق منذ أن جاء إلى هذه البلاد بقصد العمل. خرج من المقهى مُسرعًا، أحسّ بأنّه يحتاجُ إلى بضع خطوات إضافية، ويطير. ناداه نادل الطلبات الخارجية: إلى أين؟ هل أضعتَ طريق عملك؟!

بعد ستّ ساعات في السماء، لم تكن الطائرة هي التي تحلّق، بل قلبه الذي لم يحطّ إلّا على عتبة داره!

سألته ابنته بعد أن احتضنها طويلًا، وغمرها بالقبلات: أين هديّتي؟
أخرج من جيب قميصه العلوي قطعة السكّر ذاتَ شكلِ القلب، ووضعها في راحة يدها.

❖ كل شجرة تربي فأسا في جذعها

قالت أمّي: "لا"! خمس مرات مُتتالية، بصوت يخنقه البكاء. غير أنّ أخي كان أكثر عنادًا هذه المرة، فقد استغلّ وفاة أبي، وخرج، حتّى قبل أن يسمع وقع نهرة "لا" الثالثة؛ ليستعين بالحطّابين في قطعها.

جدّتي المُقعدة سمعت صراخَنا: أنا وأختي وبكاء الرضيع. رأيتها تزحف، وتطلّ برأسها من شقّ الباب. كلّ واحدٍ منّا كان يملك أسبابه الخاصّة به؛ ليعُدّ هذه الشجرة فردًا من العائلة، عدا أخي، كان يرى حفنة النقود التي سيحصل عليها مقابل جذعها وأغصانها أجدى من بقائِها.

عاد، في صحبة خمسة من الحطّابين معهم عدّتهم، وجدني ملتصقًا بجذع الشجرة أنتظرهم، لعلّ جسدي الضئيل يكون حائلًا بينها وبين فؤوسهم. شدّني من ياقتي، صرخ بي ودفعني إلى داخل البيت، وأغلق الباب بالمفتاح.

مع أوّل ضربة فأس سمعت شهقة أمي، وكأنّ الضربة استقرّت في صدرها، صرخت أختي، ومن ضربات جدّتي المستمرة بعصاها على زجاج النافذة، طرأت على بالي فكرة الهرب من نافذة المطبخ طلبًا للعون. كان الغداء على النار يصدر صوتًا كصوت أوّل المطر، فوق البلاط. بعد تحرّري من

قضبان النافذة الضيّقة رحت أركض بأقصى قوّتي حافيًا، وهواء الظهيرة الحارّ يشوي رئتي، وقد تكفّلت الشمس ضرب جسدي بسِياط حارقة. وصلت ملتهبًا كقطعة لحمٍ شبه ناضجة إلى منزلِ إمام المسجد البعيد عن بيتنا مسافة عشرِ دقائق ركضًا. لأنّني كنت منهكًا جدًا، وبالكاد أتنفّس، شعرت بالكلمات تعبر حنجرتي كجمرة ملتهبة، قلت كلمتين اثنتين، وفقدت الوعي.

حين استيقظت، كان أذان صلاة المغرب يوشك أن يُرفع. تمهّلت في الخروج من بيت الإمام، محزونًا ومثقلًا بالخيبة أجرُّ قدميّ خلفي: أكيد أنّهم قد انتهوا من قطع الشجرة الآن. ثمّة دخان! بل أحرقوا بقاياها كذلك. ركضت، وكلّما اقتربتُ من البيت كان الدخان يتكاثف وجدارًا من الناس يحجبان الرؤيةَ عنّي.

قبل ثلاث ساعات ونصف الساعة هربتُ، وصلتُ بيتَ الإمام وجسدي نصفُ محترق من شمس الظهيرة الحارقة. عدتُ الآن، وإذا بالبيت ومَن فيه والشجرة المقطوعة قد صاروا رمادًا.

بحسب سلسلة الاحتراق: الغداء أوّل ما احترق، لأنّ أمّي انشغلت عنه تبكي عقوق أخي لها حتى أحرقها الغداء. أختي الصغيرة هي الأخرى احترقت من أجل الأرجوحة المعلّقة على غصن الشجرة، وجدّتي احترقت من أجل ظلّها ورائحة الطين تحتها، تُذكّرها بمزرعتها في القرية. وحدي، علمتُ لاحقًا أنّ الشجرة التي زرعتها أمّي حين علمَت أنّها حاملٌ بأخي، وأسمتها "شجرة العائلة"، قد تُشرّدنا كأغصان مقطوعة أو

تُحوّلنا كالحطبِ إلى رماد. ما لم تعلمه أمّي، هو أنّ كلّ شجرة تربّي فأسًا في جذعها.

لم يبقَ من "شجرة العائلة" غيرُ الغصن الذي كسرته الرياح الشهر الماضي ليلة وفاة أبي، يسند الآن أحد جدران المسجد ريثما يُنتهى مِن ترميمه. ذلك الغصن الذي ظننتُه أبي، كان أنا.

❖ مجد مستعار

الكتابة إلحاح، رغم أنف هؤلاء الذين لا يمكِنهم تجاوز عقدهم فيظنّون أنّها – وحدها ـ تساعدُهم على استدعاء النص.

كاتب مغمور أراد أن يشتري أريكة مريحة تساعده على استدعاء الأفكار، استهلك منه البحثُ عنها وقتًا وجهدًا كبيرَين، جرّب كثيرًا، وزار أكثر متاجر الأثاث شهرةً في مدينته. لم يعثرْ، بعدُ، على أريكته الملهمة، ولمّا أصابه اليأس رأى شاحنة لنقل الأثاث المستعمل تعبر، لحقها، وصفّق بحرارة: إنّها تحمل أريكتي! توقّفت الشاحنة في منتصف شارع تمتدّ على جنبيه متاجر لبيع الخردوات والأشياء المستعملة، رآها، مستديرة تأخذ شكل هلال، قماشها من المخمل الأحمر، عليها آثار حرق أعقاب السجائر، طعام وحبر! هتف بحماس: من أجل بقع الحبر هذه، سأشتريها بأعلى من ثمنها.

في شقّته في الدور الثاني، لم يكن باستطاعة الذين حملوا له الأريكة إلى الأعلى حمايتها من الاصطدام بالجدران والباب، فأحسّ بأن أضلاعه في الداخل تتحطّم. أشار إليهم بأن يتركوها في وسط غرفة المعيشة. جلس أمامها يتفحّصها، قال يحدّث نفسه: إنّها ملهمتي! أشهر طويلة مضت وهو يجلس عليها ينتظر الإلهام، مِن دون أن يكتبَ حرفًا واحدًا، حتى ضاق بها ذرعًا ذات يوم ورفعها من الأسفل، وألقاها غاضبًا لتصطدم بالحائط، وتتكسّر إلى أجزاء.
ما هذا؟ كومة من الأوراق تبعثرت، حين جمعها ورتّبها وَفقَ الترقيم في أسفل كلّ صفحة، اكتشف أنّها مسوّدة نصّ خبّأها صاحبها بين ثنايا الأريكة لأسباب مجهولة، وربّما نسيها.
بعد عام، جلس على الأريكة نفسِها، ملهمته، وقد تمّ تجديدها وإصلاح كسورها، يتأمّل مبيعاتِ كتابه الأوّل!

❖ تحرسهم عيون مغمضة

الحصول على ورقة وقلم في الزنزانة أمرٌ غايةٌ في الصعوبة.
قال السجين في الزنزانة رقم 17: "جِبرُنا دمُنا". ردّ عليه سجين الزنزانة رقم 18: "والجدران دفترنا".
تخيّلتُ هذا الحوار، وأنا أتجوّل في السجن النائي الآيل إلى السقوط، المخبّأ وسط الصحراء العريضة.
فبعد انتهاء الثورة، كان قد قُصِف مِن الجهاتِ جميعِها؛ إلى أن تحوّل إلى كومةٍ، لا تكادُ حجارتُها تحمل بعضُها بعضًا. أمّا السجناء؛ فتقولُ بعضُ الأنباء: إنّهم اختفوا في ظروف غامضة. وتقولُ أنباءٌ أُخرى: إنّهم أُعدِموا جميعًا بلا استثناء، ودُفنوا في مقبرة جماعية، سبق أن مررت قربها، وأنا في طريقي إلى هنا، ورأيت كيف أنّها حُوّطتْ بالأزهار كأنّها حديقة. والمؤكّدُ أنّهم نُقلوا سِراعًا إلى سجن آخر بسرّية تامّة، وما المقبرة الجماعية إلّا تمويه مقصود.
الباحث عن الحقيقة، هكذا ألفيتُ نفسي؛ لذا لم أخف. الخوف يعيق عمليّة البحث التي جئت من أجلها. (لا شيء سوى هديل حمامة في الخارج)، جملة مكتوبة بالدماء على جدار زنزانة

انفرادية، تجاورها عبارة أخرى: (أخبروا أمّي أنّ الفرصة لم تُتح لي كي أقول لها: أكرهكِ لأنّك أنجبتني لهذا كلّه).
التقطتُ صورة للجدار ورقم الزنزانة؛ لأبحث في السجلّات لاحقًا عن اسم السجين الذي كتب هاتين العبارتين.
في زنزانة مثقوب سقفها، لاحظت بقع حبر على طرف وسادة غطّتها الأتربة. مرّت ساعة قبل أن تنبّهني حمامة حطّت بقوّة على السقف، فأسقطت بعض الأتربة على رأسي، ساعة نسيت فيها ما حولي، وأنا أقرأ، بتركيز، مذكّرات سجين هذه الزنزانة، مكتوبة على ظهر الوسادة بقلم أزرق، وبخطّ صغير واضح. التقطتُ لها صورة قبل أن أضعها في كيس بلاستيكي، أحضرته معي لجمع المعلومات. عبارات كثيرة منقوشة بآلةٍ حادّة على الجدار: (لن يُعرف له قبر)، (سنطيرُ يومًا ما)، (والله لم يزرني أحدٌ سوى البعوض والذباب). ولأنّ الكنوز غالبًا ما تكون مخبّأة بعناية في صناديق، وجدت الكنز! مئاتُ الرسائل التي كتبها المساجين على أمل أن تصل! ولكنّها لم تصل؛ فهي بقيت مهملة في غرفة مدير السجن، مرتّبة ومصنّفة وَفقَ التاريخ والاسم. بعضهم، حين لم يتلقّ ردًّا، توقّف عن الإرسال، أو ربّما مات. لاحظتُ هذا من التفاوت الواضح في أعداد الرسائل بين سجين وآخر.
في شقّتي لم أنم حتى الثلث الأخير من الليل، أقرأ الرسائل. شدّني أحدهم، كان يراسل ابن عمّه صاحب مكتبة كبيرة أعرفها، تقع في وسط العاصمة، يطلب منه قائمة طويلة بأسماء بعض الكتب، ربّما كرّر إرسال القائمة أكثر من ثلاث عشرة مرّة، من دون أن يتلقّى أيّ استجابة.

رفعت رأسي وأجلت نظري في مكتبتي، نصف كتب القائمة، تخيّلت أنّني أراها تنظر إليّ من على الرفوف نظرة ساخرة لأنّني لم أقرأها. فكّرت في أنّه من غير اللائق منح هذه الرسائل الخاصّة للصحيفة التي أعمل فيها، فغايتها الوحيدة، من وجهة نظري، هي الربح على حساب الحياة الشخصية لهؤلاء. بعد أسبوع من العمل الميداني، أرسلت لهم استقالتي في البريد، بحيث وجدت وظيفة أخرى استغرقت من عمري عامًا كاملًا ونصف، عرفتُ فيه معنى أن أكون "إنسانًا" بحقّ، إذْ عملتُ كمجهول على إعادة إرسال رسائل المساجين إلى ذويهم، مع الصور التي التقطتها لزنزاناتهم طوال أسبوع من الزيارات المتكرّرة للسجن، أوصلتها بنفسي باعتباري فردًا حُرًّا، لا يؤيّد طرفًا معيّنًا. كذلك، رصدت، بإنسانيّة محضة، ردّات فعل ذويهم التي اختصرها البكاء والاشتياق غالبًا، فتراني بكيت معهم، ولبّيت دعواتهم إلى الطعام، باستثناء حالتَي سجينَين اتّخذ ذووهما قرار نبذهما، وكما توقّعت قاموا بطردي، غير أنّني تركت الرسائل على عتبتَيهما، ومضيت.

ثمّة رسالة واحدة من بين الرسائل بدت لي خاصة جدًّا، لم أستطع منع نفسي من إتمام قراءتها، مع إعادة القراءة، أكثر من مرّة واحدة. وبعد بحث مُضنٍ، بقيت شهورًا عديدة أبحث عن المرسل إليها، إلى أن وجدت عنوانها، وقد بدت لي كَمَنْ قصد إلى الاختباء هربًا من العالم.

رصدْتُ تلك المرأة، فرأيتها تخرج من باب بيتها في صحبة طفلَين يتبعُهم رجل يحمل رضيعًا، يتّجهون نحو سيّارة رُكِنت في الخارج. أوحى إليّ المشهد أنّه زوجها، فتراجعْتُ.
عائلة سعيدة، هل تستحقّ ما قد تفعله رسالة غرامية كهذه؟
ولأنّه الشخص نفسه الذي كتب على جدار زنزانته أنّه لم تتح له فرصة؛ ليقول لأمّه: إنّه يكرهها؛ فقد قطع عليّ هذا السجين كلّ سبيل لأن أعيده إلى أهله، إلى أمّه.
عندما همَمْتُ بإدارة ظهري عائدًا، سمعت امرأة تناديه - وهي تطلّ برأسها من باب المنزل: "لا تنسَ علاج الضغط، إي بنيّ (...)". فقد نادته بالاسم نفسه المدوّن في قائمة السجناء التي بين يديّ.
من جهتي، تساءلت: هل تُراه هرب؟ لكنّني ابتسمت، وتمتمت: شاء الله أن يكونَ ختامُها مسك!

❖ ليلة في العشوائيات

في حيٍ قام عشوائيًّا في طرف المدينة – يُقال: إنّه، في الأساس، كان أصل تلك المدينة، غير أنّ العمران الحديث امتدّ سريعًا، صوب الشرق وصار المدينة. في هذا الحيّ، ينام جميعُ مَن فيه، عادةً، قبل منتصف الليل بساعتين.
في إحدى الليالي، وفي داخل أعلى مباني الحيّ ارتفاعًا، وأقدمها فيه منذ ما يقارب الستّين عامًا، وبعد أن نام الصغار متجاوزين إلى الساعة الحادية عشرة ليلًا، نزعت الأمّ من روزنامة التقويم ورقةَ تاريخ اليوم، وكتبت على ظهرِها: "تذكّري، غدًا عيد ميلاد مازن. لا تنسي أن تطلبي كعكةً من المدينة"، ثم ثبّتتها على الثلاجة بمغناطيس له شكل فاكهة الموز.
في الليلة نفسها، وفي شقّة الدور الثاني التي كانت، في الأصل، شقّتَين - وهي أوسع شقق المبنى، وفيها العائلة الأكبر- فتح الأب هاتفه النقّال، وكتب تذكيرًا بمستلزماته:

"غدًا آخر قسط للمصرف، التنبّه إلى ذلك التاريخ الساعة التاسعة صباحًا".

كذلك، في إحدى غرف الشقّة المجاورة، قطعت الفتاة ذات السابعة عشر عامًا انغماسها في القراءة فجأة؛ لتبعث رسالة نصّية إلى صديقتها: "إيمان، لا تنسي أن تحضري رواية دان براون معك غدًا، ورواية الشفق كذلك".

ثمّة شخص في الشقّة الوحيدة المستأجرة، في الدور السادس، لم ينم في تلك الليلة، وشقّته إحدى أكثر الشقق في المبنى هدوءًا. لم يفلح، قبل الاتّصال العاشر، في الوصول إلى زوجته التي حملت له فيه البشرى، فقد ردّت عليه، وأخبرته أنّها أنجبت ابنهما، وأنّها والمولود بخير. بعد أن تبادلا التهنئة على عطيّة الله لهما، أخبرها بسعيه إلى أن يكون بجوارهما صباح غد، في تمام الساعة الثامنة. فضبط المنبّه على الرابعة فجرًا بعد أن حزم حقيبة السفر.

في الدور الأول من الشقّة مقابل البوابة، طفلة أعجزها النوم، بدت قلقة؛ لأنّ الغد هو أوّل يوم لها في مدرسة ذلك الحيّ، منذ أن انتقل أهلُها إليه من القرية قبل ثلاثة أيام.

بينما كان الحارس في غرفته يطوي الرسالة، ويضعها تحت الوسادة، قال يحدّث نفسه: "غدًا مع طلوع الفجر، سأقوم بتحويل المبلغ كاملًا، ولو كلّفني الأمر أن أطلب راتب الأشهر الخمسة القادمة، صحّة ابني لا تنتظر".

الأمّ التي عجزت عن النوم، نظرت إلى ساعتها - وقد عقد الوقت عقارب الساعة في الثانية عشرة وسبع وعشرين دقيقة - تفقّدت أطفالَها، ثمّ عادت إلى سريرها، وراسلت

والدهم: "اشتقنا إليك! لو أنّ الغد يُسرع، وعسى ألّا يكون بعيدًا!" يبدو أنّها كانت متردّدة في تحرير رسالتها منذ الساعة العاشرة، وهذا ما أقلق نومها.
النور لا يزال مُضاءً في الغرفة المطلّة على الشارع. الشابُّ قابع في داخلها، منذ الساعة العاشرة، يحادث فتاة عبر الهاتف. قبل أن ينهي المحادثة الطويلة، تواعدا على اللقاء في الغد، بجوار المكتبة.
في تمام الساعة الواحدة - مستهلّ اليوم التالي- وفيما يبدو أنّ الجميع غرق في النوم، كان صوتٌ ينبعث من الشقّة في الدور الثالث، ولكنّه انقطع بعد عشر دقائق، صوت الجدّة التي لا تزالُ، منذ التاسعة، تصرخ بأحفادها: "انهضوا لنخرجَ من هنا قبل أن يحضرَ الموت".
في الشقّة المستأجرة حديثًا، سقط على الأرض علبة طلاء كانت مفتوحة. عندما رنّ المنبّه مُعلنًا تمام الساعة الثانية صباحا، استيقظ المعلّم متأخّرًا عشر دقائق، على الرغم مِن أنّه شعر بالدوار، إلّا أنّه ارتدى ثيابه على عجلة، وخرج يقود سيارته نحو مدرسته في القرية البعيدة.
على بُعد عشرات الكيلومترات، يعرضُ التلفازُ موجزَ أخبار الصباح، في إحدى شقق المدينة الفاخرةِ، يتصدّرها خبرُ زلزال ضربَ المدينة في تمام الساعة الثالثة، في صباح ذلك اليوم.
لم يُسفر الزلزال عن أيّ خسائر ماديّة أو ضحايا بشريّة، ما خلا في مباني العشوائيات.

أمّا عمليات الإنقاذ؛ فلم تصرّح، حتى هذه اللحظة، بوجودِ أحياء تحت الأنقاض!

❖ انتقام

ردّت على هاتفِها، بعد إلحاحٍ من المتّصل.
لم يهنأ لأمّها بال، من الطرف الآخر من العالَم، على الرغم من اختلاف التوقيت، فقد أرّقها القلق، وجافاها النوم حتى تطمئنّ على ابنتِها: هل أنت بخير؟ إنّني قلقة.
فردّت عليها: أنا بخير، لا أستطيع أن أكلّمك الآن، يا أمّي. هلّا عدْتِ إلى النوم. إنّها الثالثة فجرًا بتوقيتكم، أليس كذلك؟
مسحَتْ الفتاة دمعتَها التي أبت إلّا أن تسقط فوق منبسط كفّها، وهي تغسل الأطباق. آلمتها الكدمة الزرقاء تحت عينها اليسرى.
تنهّدت عشرين مرّة. هل صادف ذلك عدد الأطباق بين يديها؟ تذكّرت كومة الثياب المتّسخة، مسحت دمعتها هذه المرّة بكتفها برفق. هزّت رأسها لتطرد فكرة سيّئة وهي تتأمّل الكلور "مبيّض الثياب"، وكان عليها أن تنحني لتزيل الطعام الملتصق بالأرضية قبل أن تمسح تلك الدمعة. ولكنّها عجزت عن السيطرة على دموعها، فتركتها تسقط، وهي تقوم بكيّ

الثياب، نزف أنفها فوق قميصه الأبيض، ارتعبت، وركضت لتغسله، وحين فشلت في إخفاء بقعة الدم خبّأته تحت السرير.
حلّقت بخيالها طويلًا وهي تطوي الغسيل الجافّ، ولم يُعدها إلى الواقع سوى رائحة الطعام الذي بدأ يحترق، وبالكاد استطاعت إنقاذه. في أثناء استحمامها، استعادت ذاكرتُها جملة الكلام القاسي الذي وجّهه لها قبل خروجه إلى عمله في الصباح. برفق, راحت تدلّك الندوب والكدمات الزرقاء في جسدها، بكت وتركت الماء الذي ينساب فوق رأسها مختلطًا بدموعها.
جفّفت شعرها، وارتدت ثوبًا حريريًّا ذات لون زهريّ فاتح، وتكحّلت؛ لتموّه شدّة الاحمرار حول عينها. جهّزت الغداء فوق المائدة، وجلست تنتظره، شاردة بخيالها مرة أخرى.
هل مَن طرق الباب؟ يبدو أنّه هو.
دخل، وفي إحدى يديه طاقة من الأزهار التي تحبّها، وفي اليد الأُخرى علبة مربّعة مغلّفة بورقة هديّة حمراء. ظنّت أنّ العلبة تحتوي على عقد الذهب الذي حلمت باقتنائه، وهو الذي كان يُحجم عن شرائه، على الرغم من إلحاحها عليه مرارًا.
دخل متردّدًا، يؤخّر قدَمًا ويقدّمُ أخرى، من دون أن ينظر إلى عينيها مباشرة - وقد يكون ذلك خجلًا ممّا سبق أن بدر منه - وراح يُقبّل جبينها، معتذرًا.
هذه المرّة، أعادها إلى الواقع وقعُ كلمات أغنيتها المفضّلة:
"الله معه لا تمنعه، ولا تعاتبه، ولا تودّعه
بكرا الندم بيرجّعه، وبكرا الحنين

الله معه، لا تحاكيه، ولا تسمعه
ضاع العمر، والله معه، وقلبك حزين"
أغنية وضعتها نغمة رنينِ هاتفها. وبإنجليزية لم تتخلّص من شَوبتها باللكنة العربية، ردّت على المتّصل:
- ألو.
= مدام (...)؟
- نعم!
= تعرّض زوجك لحادث سيارة، وتوفّي على أثر إصابة قويّة في رأسه، نرجو منك الحضـ...

قاطعت المتّصل بإنهاء المكالمة. لم تضع هاتفها جانبًا؛ بل انتقلت مباشرة إلى تطبيق الموسيقى في هاتفها، أدارت نغمة الرنين الخاصّة بها، وجعلتها في وضعيّة التكرار.
عادت إلى المائدة، وجالست وحدَتها.
قلبت صحنه على الوجه الآخر، ثمّ أعدّت لنفسها طبقًا ممّا توافر من أصناف الطعام كلّها التي حضّرتها، وراحت تتناوله بصمت، من دون أن تفارق الابتسامة وجهَها.

❖ الإقلاع عن الأمل

لم يتبدل فيّ شيء بعد موتهم، سوى أنّني أقلعت نهائيًّا عن الأمل!

كنّا، إذا سمعنا صوت الانفجارات، نهرب سريعًا نحو القبو، ونختبئ. كنت الوحيد في عائلتي الذي بقي يُنعش الأمل في النجاة، ويعيش على أمل انتهاء الحرب، في وقت قريب.

في الواقع، هدأت الحرب، وربّما بدت كذلك في الظاهر؛ على اعتبار أنّ نومها غلب يقظتها.

ذات يوم، وفيما يبدو أنّها أسرفت في النوم، كانت السماء صافية - لا أقصد خلوّها من السحب؛ بل من دخان الطائرات الحربيّة العابرة - حتى الريح الخفيفة لم تكن تحمل إلينا صوت الانفجارات البعيدة. هدوء عائم، غير ذلك النوع الذي يثير الرعب؛ وإنّما من قبيل ما يبثّ الطمأنينة في القلوب.

لفَتَنا (شقيقي وأنا) مشهدُ الناس، عبر النافذة، وقد بدأوا يخرجون إلى الشارع، فألححنا على أمّي كي نخرج أسوة فيهم. فتحت الباب وتسلّلت خارجًا أوّلًا، وقد سبق أن تفقّدت

السماء والطريق قبل أن تسمح لنا أمي بالخروج، مشترطة تحديد ساعة العودة، مُهدّدة بعقاب شدّنا من آذاننا جرًّا إلى البيت.

خرجنا، من دون سابق تخطيط في الذهاب إلى مكان مُحدّد، فقد أردنا المشي قليلا, لا غير

لم يكن هناك كثير من الدمار، فالحرب لم تقترب منّا إلى هذا الحدّ. بعض المحالّ فُتحت، وبعضها لا يزال أصحابها في الداخل ينفضون الغبار.

كنّا قد ابتعدنا كثيرًا عن البيت، حين سمعنا صوت انفجار هائل. ظهرت الطائرات في السماء فجأةً، كما لو أنّها خرجَت من العدم. أطلقنا العِنان لأقدامنا تسعفنا في الإسراع عائدين إلى البيت ركضًا، وكان شقيقي أسرع منّي.

أبطأ الفضولُ من سرعتي، وحثّ الخوفُ أقدامه على الإسراع، فرأيته يدخل قبلي... وعلى بُعد خطوات قليلة من الباب سقطت قذيفة على البيت؛ فانهار برُمّته.

وقفت مرعوبًا! أين أذهبُ؟

وبعد أن انقشعت سحابةُ الغبار، رأيتُ البيت قد استحال إلى كومة من الحطام.

في الوقت نفسه، سقطت قذيفة أخرى في الحيّ المجاور، فلم أجد بُدًّا من الاختباء تحت ركام بيتنا، صرخت مليًّا، وطرقت الباب المحطّم إلى جانبي؛ وعبثًا رحت أنتظر أمّي كي تفتح لي، وتسحبني من أذني.

❖ ذاكرة مستعارة

إنّها حياة مريعة أن تعيشَ بذاكرة مستعارة من القُصاصات.
قُصاصة مثبّتة على الباب: "لا تنسَ تقديمَ واجب العزاء".
مَن مات؟ يا لمأساتي، إنّني لا أتذكّر!
مؤخّرًا، بتُّ أفرط في النسيان، وما انتعاش ذاكرتي إلّا بسبب تعوّدي إتمام أعمالي اليومية المتشابهة؛ لذلك ألجأ إلى القُصاصات لتذكير نفسي بأيّ عمل يقتحم "روتيني" اليومي.
لا تنس! نسيت. تذكّر... أكره هذه الكلمات وما يشتقّ منها؛ لكثرة ما سمعتُها، أو قلتها ودوّنتها لنفسي.
أمس، التقيت جاري في موقف السيّارات، بادرني بـتحيّة "السلام عليكم". فرددت فورًا: "آه، آسف نسيت". لم أتنبّه إلّا وقد ابتعدتُ كثيرًا عنه، وأنا في سيّارتي.
مضى يوم إجازتي كاملًا وأنا أحاول أن أتذكّر. محاولة التذكّر مؤلمة، يرهقني شعوري برأسي يتضخّم، وكأنّ سائلًا شديد الحرارة يمرّ عابرًا أنفي، يجتاز إلى حنجرتي! وربّما كانت ذاكرتي تنزف!

هاتفت أمّي، لعلّي أُمسكِ بطرف خيطٍ منها، غير أنّ صوتها كان هادئًا لا تشوبه شائبةُ فقدٍ. لا يمكنني أن أعتبر القُصاصة طرف خيط، إنّها أحجيةٌ قطعُها كلّها ضائعة.

مرّ أسبوعان ولم أتذكّر، لا علامات في العمل تدلّ على وفاة أيّ زميل، أو قريب لواحد منهم. لم ألتقِ شخصًا نظر إليّ نظرة عتاب.

بعد أن اقتنعْت، أخيرًا، بأنّ القصاصة كُتبت خطأً - في نهاية الأسبوع الثالث تحديدًا - انتبهت إلى أنّ مدخل البناية متّسخ، وأركانه مليئة بأوراق الشجر والغبار.

أين الحارس؟

فتحت فمي غاضبًا لأناديه، غير أنّ شيئًا ما، يشبه صفعة قوية، كان ذا مذاق مُرّ عبر حلقي، مانعًا الحروف أن تعبرَ حنجرتي.

❖ يوم مستعار من الجنة

هتفَت أمّي تحثّني على الاستعجال: هيّا أسرعي في ارتداء ثيابك؛ لتذهبي مع خالتك في نزهة.

كانت تلك هي المرّة الأولى في حياتي التي أخرج بها في نزهة. شعرت بفرح شديد منحني طاقة أسرع في ارتداء الفستان الأبيض الجميل الذي اشترته لي أمّي الأسبوع الماضي، مع قبّعة غنيّة بالريش.

شعرت بالزهو وأنا أقف إلى جانب خالتي التي بدت كالأميرات في فستانها الطويل بلون الزمرّد.

مع أوّل خطوة لي في الخارج، شعرت بأنّ جسدي امتلأ بالهواء، وأنّني كبالونٍ أبيض كبير. رحت أطير فرحًا! قالت خالتي وهي تشير بيدها: انظري، من هنا نأتي بالخبز. كانت نافذة متجر الخبز مزدحمة بالزبائن، لم أر الخبّاز لأعرف هل يوافق شكلُه فكرتي الطفولية عن الخبّازين، رجل نصف أصلع، بدين لفرط ما يأكل من الكعك والخبز.

التفتّ عندما سمعت صوتَ أجراس قويًا يقترب، ارتفعت ومشيت قليلًا على أطراف أصابعي، لعلّي أرى أبعد ممّا يسمح به طول قامتي، وحين رأيت مصدر صوتِ الأجراس صفّقت بيدي هاتفة: بائع حلوى! وقد أوحى سلوكي إلى خالتي بأنّني أرغب في بعضٍ منها. فأوقفَت البائع بإشارة مِن يدها, لمعت ساعتها المذهّبة في أشعّة الشمس، فأبهرتني، وكأنّني في حضرة قوس قزح.

كان بائع الحلوى الجوّال يرتدي قميصًا أزرقَ في وسطه رَسْمُ أرنبٍ أبيضَ بأذنين حمراوين، رُسم بطريقة جعلته يعكس اللطافة والتحبّب، وقد بدا معتمرًا قبّعة قطنية رُسمَت كذلك على شكل رأس أرنب، بأذنين طويلتين تدلّت إحداهما وغطّت عينَه اليمنى. ومع هذا كلّه، لم أكن لأشعر بمذاق الحلوى اللذيذ كما كنت آمُل.

لم ألتقِ في حياتي أشخاصًا كُثرًا كأولئك الذين كانوا يتسبّبون بذلك الزحام. خفت، وتشبّثت بيد خالتي طويلًا، حتى عبرنا سيقانًا كثيرة، فلم يتوزّع بصري غيرُ سيقان في سراويل فضفاضة، وسيقان في فساتين مزركشة، وسيقان في أحذية متحرّكة.

عندما تخطّينا الزحام أخيرًا، استوقفني سورٌ يحيط بالمكان حيث يقصد الناس إلى التنزّه. خلف السور، ثمّة كثير من الأراجيح والألعاب، وبائعي الحلوى والدُمى المتحرّكة، والأطفال.

بعد ذلك... اختلطَ عليّ الأمر! وبتّ أجهل إن كنتُ قد غفوت، أو توقّفَت حاضنةُ دار الأيتام عن القراءة؛ لأنّنا نمنا جميعًا، لأنّني لم أستطعْ تجاوز السور أبدًا.

❖ كعك السيدة آن

لدى الجدّات ميزة خاصّة بهنّ، إنّهن حنونات أكثر ممّا يجب. والأطفال، من جهتهم، ربّما أحبّوا الجدّات لأجل الحلوى التي يحرصْنَ على حملها في حقائبهنّ، أينما ذهبن.
لم أعرف في حياتي جدّتي؛ لذا، لم أختبرْ هذا الشعور على حقيقته، فقد كنتُ حفيدًا لجدٍّ واحدٍ كان لا يزال على قيد الحياة حين وُلدت، ثمّ مات كما يموتُ الباقون.
من جانب الدلال! لم تخصّني به أيّ امرأة أُخرى عدا أمّي، لهذا، عشت حذرًا من كلّ ما يتعلّق بالنساء.

...

- آلو، مرحبًا أمّي، أريد طريقة سهلة وسريعة لخبز كعكة لذيذة.
- لمن؟
-لجارتي.
-هل هي جميلة، أتحبّها؟
- أمّي أرجوك، لقد جاوزت السبعين من عمرها.

في هذه البلاد، أن تعيشَ وحدك، هو أن تعيشَ وحدَك ووحدتَك، الأمر لا يحتمل التأويل. في بلادي، اللغة واللهجة مسألة تجعل وحدتك تنمو في وتيرة أكثر بُطءً، وقد تموتُ وحدتك في أيّ لحظة يُطرق فيها الباب.
أنا غريبٌ هنا، لا أحد يفهم لغتي. لغتي التي أتواصل بها مع البشر أكثر من نصف قرن، لا تُسعفني أيّ لغة سواها؛ لأعبّر عن غضبي وحزني وامتعاضي. حين جئت إلى هذا المكان، واجهْت صعوبة بالغة في إكمال أيّ حكاية أو اعتراض ما، بلغة تعلّمتها حديثًا، وها هو لساني يعجز عن الشعور بأيّ حميمية بينه وبينها.
لقد بدأت علاقتنا في المصعد. ابتسمت لي، ومن حسن حظّي أنّ الابتسامة لغة بيضاء يفهمها الجميع بلا جهد. ابتسمت لها وانحنيت قليلًا، كما يفعلون، هنا، تعبيرًا عن الاحترام.
كان لقاؤنا معدودًا، غالبًا ما يكون في المصعد، أو في الممرّ الذي يفصل بين شقّتي وشقّتها، كذلك حوارنا، لم يكن ليتعدّى إلى أبعد من التحيّة الطيّبة والتبسّم. كثيرًا ما أصادفها تحمل أشياء كثيرة وثقيلة، فأساعدها في حملها. أتهيّب دخول شقّتها احترامًا لا خوفًا، فأنا أعجز من أن أنسلخ من عاداتي.
ذات صباح، وجدت بعض الكعك المكوّب في طبق أزرق عند باب شقّتي، لعلّها كانت تنتظرني، ولم تكد تسمع بابي يُفتح، حتّى فتحَت بابها، ولوّحَت لي من بعيد، فهمْت أنّها ترغب بفضول يدفعني لأجرّب مذاق كعكتها، متمنّية أن يعجبني. ولأنّ الشكّ صفة بشرية مشتركة، فقد شككت في أمرها، وتساءلت: "ما الذي تريده امرأة سبعينيّة منّي؟ فالوَسامة

ليست من صفاتي، كذلك الثراء بأيّ حال!". مع ذلك، فقد تجاوزت ظنوني، وحملت الكعك إلى الداخل، وتخلّصت منه سرًّا، مخافة أن أجرح كرامتها؛ ثمّ خرجت أقصد إلى عملي.

ربّما أخطأت حين أوحيتُ إليها بأنّني تناولت الكعك، عندما سألتني عن طعمه، وأجبتُها، كاذبًا، بأنّه لذيذٌ للغاية، شكرتُها وأنا أدّعي الامتنان. تركت طبقًا آخر عند الباب في اليوم التالي، واستمرّت تخبز الكعك لأجلي أيامًا متواصلة، إلى حدٍّ لم أعد أستطيع معه مقاومة رائحته الشهيّة، أغواني فضولي، فتناولته.

مرّت الأيام، وصرتُ أعتمد على كعكها الصباحيّ في فطوري. ومن تراه يعثر على امرأة تعتني به ويرفض؟! شعرت كما لو أنّني طفلٌ صغير، يُبالَغ في تدلّلي. ربّما شابه ذلك شعور الأحفاد الذي غاب عنّي. لقد أحببت هذه السيّدة السبعينية التي خصّتني في بعض اهتمامِها.

الطحين يغطّي مطبخي، ووجهي وثيابي. وصفةُ أمّي ليست دقيقة، استعنت بالإنترنت، فاختلط الأمرُ عليّ. غير أنّي نجحتُ أخيرًا في خَبز كعكة غيرِ مُتّسقٍ شكلُها، لكنّ طعمها بدا لذيذًا على أيّ حال. مضى يومان لم أجد كعكًا عند الباب كما عهدت، كذلك لم ألتقِ بها في المصعد، فساورني القلق.

سألتُ حارس البناية عنها، فأخبرني أنّها ذهبت لتُجري بعض "الفحوصات الطبّية" قبل يومين، وحتّى الساعة لم تعد.

حملتُ كعكتي بحرصٍ كحِرز ثمين، وقصدْت إلى المشفى. سألت عنها موظّفة الاستقبال بلغة هشّة، دوّنتُ المعلومات على راحة يدي في عجَل، ورحت أبحث عن غرفتها في زحمة

الغرف المتشابهة. حين وصلت، وجدتُها في غرفة الإنعاش، تأمّلتها عبر الحائط الزجاجي، وهي موصولة بالأجهزة. وقفت طويلًا، وقد أنهكني الاستياء والحزن، وراحت الظنون تجول في خاطري: هل هي نائمة أم ميّتة؟ لا أعلم. وبعد دقائق فاجأني الطبيب:

– آها، لقد جئت بالفعل. لقد كانت متأكّدة أنّك ستحرص على المجيء.

مدّ لي يده وأعطاني ورقة، كان اسمي مدوّنًا فيها إلى جانب صورة لي، يبدو أنّها التقطتها عندما كنت مشغولًا بحمل حاجيّاتها في المصعد.

- تفضّل، لقد خصّتك المريضة بهذه الرسالة.

مرحبًا أيها اللطيف،

إذا كنت تقرأ هذه الرسالة، فإنّ حدسي لم يُخطئ أبدًا، فقد علمتُ يقينًا أنّ غيابي سيقلقك، وستأتي. كنت أخبز الكعك لابني. كان رجل إطفاء، مات في أثناء عمله. إنّك تسكن شقّته، تُشبهه إلى حدٍّ بعيد، تدخّن مثله بشراهة كشجرة أضرم الأطفالُ فيها النار. صوت التلفاز، في منزلك، عالٍ على الدوام. تنسى الباب مفتوحًا، فأغلقُه كما اعتدتُ أن أفعل، لم يكن ابني يزورني أو يسمح لي بدخول شقّته.

كما أنّه لم يكن في مثل لطفك، ولا يحمل الأشياء الثقيلة عنّي، أو يبادرني بابتسامة كما كنتَ تفعل.

كنتُ أخبز لابني الكعك في كلّ يوم، فيتركه عند الباب إلى أنْ يتعفّن. كنتُ أخبزه له بحُبّ، في حين أنت الذي تناولتَه بحُبّ.
شكرًا لأنّك هنا، أن يُحزِن موتي أحدًا، فهذا يمنحني بعضَ الأمل في أنّ حياتي لم تذهبْ عبثًا.
تحيّاتي، آن كوبر.

❖ سقط حلمي من يدي

قالت لي أمّي بلا مبالاة، وهي تطوي الغسيل الجافّ: ها قد حان دورك، اذهبي وقومي بما علّمتك إيّاه حين اصطحبتك معي! ثمّ تناولت المقصّ من علبة معدنية قريبة منها، وثقبت ثوبي ثقبَين كبيرَين، أحدهما عند الساق، والآخر عند معصم اليد اليسرى.

أدرت ظهري ببطءٍ شديد، ما زال لديّ حفنة أمل في أن تتراجع، ولكنّها لم تفعل. ولمّا رأتني أرتدي حذائي، قالت: "اذهبي حافية".

لم يكن حذائي بحالة جيّدة، على أيّ حال؛ لكي يؤثّر في عملٍ كهذا، ولا كان ثوبي ليستحقّ هذه الثقوب كلّها، مع ذلك، فإنّ والدتي تميل إلى المبالغة التي تستدرّ كثيرًا من المال في هذا العمل.

الساعة الثالثة عصرًا، الشمس لا تزالُ حارّة، والأرض كذلك، أشعر بقدميّ تحترقان. عليّ الوصول إلى إشارة المرور قبل أن ينتهي وقت الذروة. أمامي طريق طويل، ولكي أسلّي نفسي، أخرجت يدي اليسرى من الكمّ إلى الداخل قليلًا،

ونظرت إلى الشارع أمامي عبر الثقب، مشيتُ مسافة طويلة وأنا أتلمّس طريقي عبره، حتى وصلت إلى الإشارة.
لم يكن حظّي من التعلّم موفّقًا، فلم أتلقّ تعليمًا جيّدًا.، وكثيرًا ما كنت أتغيّب عن المدرسة؛ لأعتني بشقيقي الصغير حين كانت أمّي تزاول عملها في الصباح، غير أنّي انتظمت في الحضور بعد أن مات، لكنّ السنة الدراسية كانت قد شارفت على الانتهاء؛ لذا غلبني شعور بالفرح لموته، وعلى العموم لم تكن تربطني به أيّ علاقة، أظن أنني كنت أكرهه، إذ كان يتقيّأ كثيرًا، ويبكي طوال الوقت، موتُه يعني عودتي إلى الصفوف الدراسية.
"المدرسة مضيعة للمال، إذا أردتِ أن تتعلّمي، اعملي لتحصلي على المال بنفسك"، هذا ما قالته لي أمّي.
أميّز الأرقام الكبيرة. وعدّاد هذه الإشارة دائمًا ما يحملُ رقمًا كبيرًا، وهذا ما يكفيني لأطرق نوافذ السيّارات، وأقوم بما علّمتْنيه أمي، أن أدّعي الأسى وأخبرهم بأنّ شقيقي – على الرغم مِن أنّه ميت - يحتاجُ إلى الحليب والثياب. وأبي لا يسأل عنّا، نكاد نموت من الجوع. كثيرون كانوا يرفضون فتح نوافذهم، ومن كان يفتحها، غالبًا ما كان يعطيني شيئًا يسيرًا من المال.
إنّه عمل صعب ومُرهق للغاية، يجب أن أكون حاضرة بحواسّي كلّها: فمي يتكلّم، يدِي تستجدي، عين ترقُب عدّاد الإشارة يتناقص، وأخرى ترقُب مدى استجابة الناس. أربعة،

ثلاثة، اثنان، واحد. عند الرقم واحد ينبغي لقدميّ أن تقفزا إلى الرصيف، أيّما خطأ قد يعرّضني للدَّوس.

في الليل، أحلم بالمدرسة، قد يكون ذلك انعكاسًا للفراغ في داخلي، فحدود أحلامي ضيّقة، لا تتجاوز صفوف المدرسة، وكابوسٌ يزورني باستمرار، هو أن تدوسَني سيّارة. يوقظُني صوت أبي أحيانًا، يزورنا بين حينٍ وآخر. وفي الصباح، يرحل... تاركًا خلفه؟! لا شيء.

إنّني أعمل بجِدّ. حتى بتّ أصنع ثقوب ثيابي بنفسي، وأرتجل كلامًا من شأنه استثارةُ شفقة الناس. تملّكني حلم العودة إلى المدرسة، إلى حدٍّ لم أعدْ فيه بحاجة إلى ادّعاء الأسى، فقد كنت حزينة حقًّا، وأبكي بحرقة؛ لأنّ ما أحصل عليه من مال لا يغطّي نفقات الصفوف.

ستبدأ الدراسة بعد يومين، أمّي لم تخرج إلى العمل منذ شهرين تقريبًا، قدماها متورّمتان، تبدو مريضة جدًّا. عملي لا يأتي بنتائج ذات قيمة، لقد أصابني اليأس، وكلّ يوم في طريق الرجوع، أتعمّد المرور قريبًا من متجرٍ يبيع اللوازم المدرسية، ما أملكُه معي لا يكاد يكفي ثمن عشائنا.

في تلك الليلة كان الزحام شديدًا، والناس يخرجون من المتجر بأيدٍ ممتلئة. نظرت إليهم من ثقب ثوبي لأقلّص حجم الألم الذي أشعر به، لقد انتهى كلّ شيء بالنسبة إليّ، لأنّ...!!! لا فائدة، فبكيت.

ارتعشت، ورجعتُ خطوتين إلى الوراء حين سألني رجل: لِمَ تبكين؟ وهو يمسك يدي برفق لأهدأ. ومن شدّة يأسي، أخبرته القصّةَ كاملةً. حدّق بي كثيرًا، قبل أن يجرّني من يدي نحو

المتجر، وابتاع لي ما لم أقدر على حمله وحدي في تلك المسافة كلّها، وأوصلني إلى البيت بسيّارته، ثمّ ترك في يدي كثيرًا من المال. وقفت ممتنّة حتى اختفى بسيارته عن مرأى بصري، وحولي كثير ممّا كنت أحلم به. حملت ما استطعت حمله منه، وركضت منتشية إلى الداخل، لمحت حذاء جارتنا على عتبة الباب، لأجد أمّي مستلقية على الفراش، وإلى جانبها طفلٌ صغيرٌ بملامح أخي المتوفّى.

جمدت في مكاني! وأوقعتُ ما كنت أحمله... فسقط حلمي من يدي.

❖ أنـا دميـة أمي

لماذا يُنجب الآباء الأبناء؟
جاءت الإجابة صادمة! بدا لي أنّني قديم جدًّا، فأوّل ما خُلقت كنتُ حلمًا بالنسبة إلى أمّي. كنت على هيئة دمية في يدها، حين كانت في الخامسة من عمرها، تُعاملها كما ترى الأمّهات حولها يعاملن صغارهنّ. ثمّ تحقّق حلمها وأنجبتني.
كانت تتركني، أسابيعَ متواصلة، عند جدّتي، لزوم السفر. ربّما لا زالت عالقة في حلمها القديم، فتمارس عليّ ما كانت تمارسه على دميتها، ترميها في أيّ زاوية من المنزل، تتناول الطعام، تنام، تخرج، تلعب. وإذا شعرت بالملل تلتقطها محتضنة.
غير أنّي لست دمية! وأحتاج إلى أشياء لا تحتاج إليها الدُمى!
لم أفهم سرّ إهمال المرء حلمه!
لا أدري شيئًا عن نيّاتِ أبي نحو إنجابي، غير أنّه مات بعد أن أسماني باسم والده. ثمّ اكتشفت، حين كبرت، أنّ أمّي كذبت عليّ، كانت نيّاتُه سليمة نحو إنجاب الأطفال، فلديه سبعة من زوجته الثانية، وأنا (دمية أمي) لم يشأ أن ينتزعني منها.

زرته ثلاث مرّات، غير أنّ هذه الزيارات عمّقت شعوري، تباعًا، بأنني مهمَل، وأنّه لا يراني ابنًا له على الإطلاق.
نعود إلى أمّي؛ يبدو لي أنّ الشخص الأنانيّ الذي يستمتع بحياته، في كلّ دقيقة، له وحده فحسب، يبدو أنّه قابل للإصابة بالشيخوخة مبكّرًا! فجميعُ الأمراض التي أعرفها أصيبت بها أمّي في منتصف الأربعينات من عمرها، ومن عوارضها أنّها تنسى بإفراط، وتسعل كثيرًا، شعرها يتساقط بكثافة، كثيرة النوم، يخيّل إليّ وكأنّها كانت تحتضر، مع ذلك، فإنّ هذا لم يك ليغيّر شيئًا من شعوري الواهي تُجاهها.
أرادت أن تموت في بيت والدَيها، استغرق الأمر منّي يومين لأنظّفه من الغبار، وأجهّزه لاستقبالها. مرّ أسبوع، وفي اليوم الثامن اتّصلت بي الممرّضة التي تعتني بها، وأخبرتني أنّها ماتت. طلبْتُ إجازة من المدير حيث أعمل؛ لأنتهي من أمور الجنازة والدفن، كنت باردًا كقالب ثلج، أردت أن ينتهي كلّ شيء سريعًا، فلم يُحزنّي موتها، كما فعل موتُ جدّتي قبل أعوام.
بعد أيّام من وفاتها، لازمني شعور بأنّني أفتقد شيئًا لا أعرفه، ولم يكن لأمّي سببٌ به على أيّ حال. بينما كنت أتقلّب في فراشي محاولًا النوم، تذكّرته فجأة، نهضتُ من الفور، ارتديت ثيابي، ركبت سيارتي، وتوجّهت إلى بيت جدّاي. صعدت إلى الغرفة العلوية المليئة بمقتنيات قديمة. نبشت في الصناديق كلّها، بما فيها من أغراض وأشياء وتركات، ولم أتوقّف عن البحث حتى عثرتُ عليّ!

كنتُ أرتدي بنطالًا أزرق بحمّالات مطّاطية، وقميصًا داخليًّا ذات لون أزرق فاتح، وقد بدوت أصلعَ، وواحدة من عيناي مفقوءة، أو ربّما كانت محطّمة! لا فرق.
نظّفتْني برفق، ووضعتْني على المقعد إلى جانبي، وقدتُ سيارتي راجِعًا. بتّ أنام كلّ ليلة إلى جانبي على السرير... وأحيانًا، أجدُني مُلقًى على وجهي في الأرض، أدوسني خطأً... ولا أشعر!

❖ الذي لا يريد أن يكتب اسمه

ذلك الذي لا أريد أن أكتب اسمه، ليس أنا؛ بل كان أخي الأكبر. يحبّه أبي أكثر منّا نحن، ربما أحسسنا بذلك، من باب الغيرة؛ فعزَونا ذلك إلى أنّه الأكبر فينا، أو إلى أنّه يأخذه معه أينما ذهب.

أعني بـالضمير "نحن": أنا وشقيقتي الصغيرة التي تحبو آنذاك.

في اليوم المشؤوم - كما تصفه "ماما" - كنّا نجلس، أنا وأخي، مقابل والدي تحت مظلّة القشّ، وهو ينظّف مسدّساته الثلاثة التي عجزت عن فهم غايته من امتلاكها. لم نكن أثرياء لنخاف على مالنا ومقتنياتنا من اللصوص، كذلك لم يكن أبي من هُواة الصيد.

برّر لي شقيقي هذا الأمر مرّة، بقوله أنّ أعداء أبي يحومون، دائمًا، حول البيت! تأكّدت، لاحقًا، أنّ أبي كان أطيبَ مِن أن يكون له أعداء. كذب عليّ شقيقي حتّى امتنع عن الخروج، فلا أضيع.

كنّا نجلس، قبالة أبي، وهو ينظّف أسلحته، صامتا وكأنّه يمارس طقسًا مقدّسًا. اشتدّ تذمّري من الشمس، وهي تتسرّب من الشقوق فتزعج وجهي، وقد أغضب تذمّري أبي، فطلب من شقيقي أن يبادلني بمكانه؛ لأنّه أطول قامةً منّي، فوضعيّته تحمي رأسه من شعاع الشمس؛ لأنّه يستقرّ في صدره.

مرّت دقائق قصيرة كنت أفكّرُ شاردًا في وجه أبي: هل سيسمحُ له وقته بإصلاح درّاجتي؟

ثمّ، فجأة! انطلقت رصاصة، توجّهت بدقّة تامّة نحو رأس شقيقي، وثقبته! كانت أمّي تسترق النظر إلينا من نافذة المطبخ، بين حينٍ وآخر، صرخَت، وجاءت تجري نحونا. أمّا أبي، فبدا وكأنّ جسده التحم بخشب المقعد حيث كان يجلس، فتخشّب فاغرًا فاه، مِن دون أن يبديَ أيّ ردّة فعل. مال رأس شقيقي إلى الخلف، وجحظت عيناه، والثقب في جبهته ينزف خيط دم.

للحال مات أخي! ونسيناه، أو كدنا أن نفعل ذلك؛ لولا أنّ أبي قرّر أنّ يناديني باسمه كلّما رآني. فعمل على تغيير اسمي رسميًا في بيانات الدولة، وأسماني باسمه الذي أتجنّب كتابته.

قال لي: "أريد أن يعذّبك الندم طيلة حياتك، لو أنّك لم تستبدل مكانك بمكانه، لكان بيننا الآن حيًّا، ولكانت الرصاصة عبرت من فوق رأسك، وما كان لأحد أن يُصاب بمكروه أو أذى".

اسمي الأصلي امّحى، واسمي الجديد أرفضه، فقرّرت أن: لا اسم لي.

... وفي الصفّ، على دفاتري وورقة الاختبار، أترك خانة الاسم فارغة. لذا، ينادونني في المدرسة بـ "ذلك الذي لا يكتبُ اسمَه".

❖ الخيانة باللون الأزرق

يؤثر عنّي أني كنت طفلًا متطلّبًا، أنام في حضن أمّي على الأريكة قابضًا يدي على ذراعها، كما لو أنّي أخاف أن تختفي. ثمّ أستيقظ وحيدًا في سريري. لم أكن أعرف ما الخيانة ومعناها. إلّا أنّني أستطيع الآن أن أطلقها مسمًّى على ذلك الألم الداخلي الذي أشعر به حين أنام مطمئنًا في حضنها، وأستيقظ في سريري. ذلك الألم جعلني طفلًا حزينًا، تجتاحني العدوانيّة في بعض الأحيان.

عندما أنجبت أمّي شقيقي، لم تهملني كما توقّعت، فاختفت مخاوفي كلّها. ولكنّني بتّ أشعر بالشفقة على ذلك المخلوق الصغير كثير البكاء. من جهتي، عدت طفلًا طبيعيًا، وكان ذلك لأنني كلّما أُرغمت على النوم في فراشي، صرتُ ألمح أمّي - وأنا أدّعي النوم - تمشي على أطراف أصابعها؛ لتضع شقيقي في سريره، وقد نام مطمئنًّا في حضنها.

أنا أعي، تمامًا، شعوري بذلك الألم وهو ينتقل إليه، حين يستيقظ كلّ صباح، ويجد نفسه وحيدًا في سريره، غارقًا في نوبة بكاء حادّة.

في المدرسة، عرفت الخيانة، وكانت أعمق ألمًا وأشد تأثيرا فيّ. تصرّف رفاقي الذين كانوا يدفعونني إلى القيام بأمور سيئة, وحين كنّا نُضبَط، يتّفقون على الوشاية بي إلى المعلّم؛ فأعاقب بالضرب.
أمّا الأشدّ؛ فهي خيانة الكبار للصغار، وهذه لا يمكن تجاوزها؛ لأنّها تبقى ندبة في الروح. معلّم مادة العلوم كان جارنا، وإذا التقاني، فهو لا يعدم طلبًا أو خدمة، يطلب منّي، مثلًا، أن أوصل له البقالة، على وعد منه أن يعطيني تقدير امتياز في اختبار مادّة العلوم، حتّى لو أخفقت، غير أنّه خانني، ولم يفِ بوعده، وشعرت كما لو أنّني صُفعت، حين رأيتها "جيّد".
أكثر خيانة أثّرت فيّ، وجعلتني بائسًا على امتداد أعوام، كانت بعد وفاة زوجتي، حين عدت إلى العيش عند أمّي. فكنّا نتشارك الجلوس على الأريكة نفسها، ثلاثتنا؛ أنا وهي وطفلي الذي يجلس في حضنها! فإذا نام، طلبت منّي أن أحمله إلى سريرها، فأبقى غافيًا على المقعد، وطفلي ينام ويستيقظ كلّ يوم في حضنها.

❖ خط أمي

كانت أمّي واحدة من نساء الحيّ الأمّيّات. رُزقت بي بعد سبع بنات، وقد حرَصت على أن يُتْمِمْنَ تعليمهنّ قبل أن يتزوّجن.
كان عمري ثلاث عشرة سنة حين تزوّجت آخر أخواتي، فصار البيت فارغًا إلّا منّي ومن والديّ. كان أبي يقضي معظم أوقاته في المسجد، في حين كنتُ أوزّع وقتي بين الخروج للّعب مع بعض الأصدقاء، أو المذاكرة, أو مشاهدة التلفاز.
أمّا أمّي؛ فقد اتّخذت قرارًا مفاجئًا، ربّما دفعها إليه وحدتها، أو فراغ أوقاتها، وكان القرار أن تتعلم! فقد طلبت منّي أن أسجّلها طالبة مستجدّة في مدرسة لمحو الأمّيّة، تقع على بعد ثلاثة أحياء من بيتنا. أتذكّر أوّل يوم لها في المدرسة المسائية، بدت كطفلة صغيرة متلهّفة، رتّبَتْ أقلامها ودفاترها في حقيبة بنّية اللون، اشترتها لتكون حقيبتها المدرسية.
رأيتها أكثر من مرّة تُخرج محتواها وتتأمّلها، ثمّ تعيد ترتيبها في رفق وإتقان ومسؤولية.
فإذا قصدَت إلى المدرسة، ارتدَت قميصًا أزرق، وغطّت شعرها بغطاء أسود بعد أن تسرّحه بعناية. كان حماسها باعثًا

على الحياة، أحسَستُ كما لو أنّ الزمن عاد بها إلى عمرها الثلاثين.
كنت للتوّ قد بدأت تعلّم القيادة، أضع تحتي وسادة؛ لأقدر على الرؤية بشكل واضح.
أوّل مرّة أوصلتها إلى المدرسة، أنزلتها عند باب المدخل، وقالت لي بارتباك: لا ترجعْ، ابقَ هنا، انتظرني! فبقيتُ، وقد أثار توتّرها، كذلك، خوفي من أن يُغشى عليها في الداخل.
يوم بعد آخر، على الرغم من أنها تجاوزت الستّين من عمرها، كانت تبدو أكثر نشاطًا، خصوصًا إذا تعلّق الأمر بدروسها وبالحفظ. أحسب أنّ فرحها حين تعلّمت كتابة اسمها أشدّ من فرحها حين رُزقت بي، ولم يبدُ أنّها كانت تُلاقي صعوبة في الفهم.
يستغرقني الأمر ساعة أو نصف ساعة من يومي؛ لأساعدها على كتابةِ واجباتها المدرسية. كنت فخورًا بها حين كتبَت اسمي كاملًا أوّل مرّة، وبلا أخطاء. صرت أفهم أخطاءها الإملائية القليلة، وأصحّحها لها، حين تكتب لي قائمة بالأشياء التي تنقصها في المطبخ.
لمّــا وصلَت إلى الصف الثالث مرضَت بشدّة، حتى صار تنفّسها لا يستقيمُ إلا عبر أنبوب.
عندما بقي لها بضع دقائق قبل أن تموت، أشارت بيدها تطلب قلمًا. مسكت يدي، وكتبت في راحة كفّيَّ بالقلم: "أحبّك". ومنذ ذلك اليوم، لم يفارقني شعور دغدغة القلم وهي تكتب تلك الكلمة.

❖ حبة بندق تنمو في رأسي

كالعادة، وصل طابور الخبز إلى باب المسجد، وكالعادة، كان عمّه يشتري له الأرغفة الأربعة، ويكفيه عناء حشر جسده الضئيل بين أقدام الكبار، لانتظار دوره.

قال له جدّه ذات مرّة: احذر أن تعتاد على أيّ شيء، فما إن تفعل حتى تتغيّر الأشياء فجأة، ولن تستطيع مواجهة التغيير.

ومع أنّ عمّه كان يشتري له حاجته من الأرغفة كلّ يوم، إلّا أنّه كان يحافظ على موقعه في الطابور إلى حين الحصول عليها.

وعلى عادته، منذ ليالٍ بعيدة، حين يضع رأسه على الوسادة وينام، لا يزال يرى الكابوس نفسَه، وها هو العدّ التنازلي ينتهي عند الرقم "صفر"، ويغرق في الظلام، فيحسب نفسه قد نام.

في ذلك الصباح، كان الطابور أطول من المعتاد، أمّا هو؛ فبدا عاجزًا عن المحافظة على موقعه، على الرغم من محاولاته

البائسة في التشبّث بالأرض بقدميه الحافيتين، فقد شعر بأنّ ثمّة شيئًا ثقيلًا يسحبه نحو القاع، فوقع مُبعثرًا الطابور.

مِن فور استيقاظه في المشفى، وجد أخته الكبرى تحدّقُ نظرَها فيه، كما لو أنّه كان يؤدّي دور الساحر في سيرك ما. أخبرته، لاحقًا، بأنّه ثمّة حبّة بندق تنمو في داخل رأسه، والأطبّاء يشعرون بتأنيب الضمير لتفكيرهم في إخراجها، بخاصةٍ أنّها تكبر بسرعة. سكت يفكّر في مدى صحّة كلامها، ولم يجد بُدًّا من تصديقها.

بينما كان يسأل الطبيب عن ميعادِ رجوعه إلى المدرسة، أصابه الذعر؛ لأنّ الكوابيس لا تنتاب المستيقظين، فقد عاوده ذلك الكابوس؛ فبدأ العدّ التنازلي، وانتهى عند الرقم صفر، وغرق في الظلام. وحين تيقّنتْ أخته أنّه قد هدأ تمامًا، أخبرته، وهو ما زال غارقًا في الظلام، بأنّ حبّة البندق في رأسه كبرت، وحجبت النور عن عينيه.

تراكم ثلاثة عشر يومًا، بلياليها ونُهُرِها، متواصلة في الظلام، وكأنّها ترجم شعوره بالقلق لفقده الإحساس بحبّة البندق الخاصّة به، ولمّا أحسّ بأذنيه تبدوان وكأنّهما مغلقتان بالقطن، اطمأنّ، وتأكّد أنّها لا تزال تكبر.

قرابة شهر، بقي كلّ صباح يصف لأخته كيف تبدو حبّة البندق؛ لتقوم برسمها، فهو الوحيد الذي يستطيع رؤيتها، بعد ذلك يحتفظ بالكرّاسة تحت وسادته. وعدها بأنّه حين يخرج من المشفى لن يشتري كثيرًا من الحلوى في المدرسة، ظنّ بأنّ حبّة البندق اختارت رأسه من بين رؤوس الصغار جميعًا؛

لأنّه كان يُفرط في تناول الحلوى، بخاصّةٍ تلك التي بنكهة البندق.

وقبل أن يسمع جوابَها عن سؤاله، عن الوقت الذي يستغرقه البندق في النضج، أحسّ فجأة بأنّ جسده بدأ يرتفع عن السرير، كما لو أنّ أيدٍ خفيةً تجذبه نحو الأعلى.

ارتعش وهتف بأخته يريد أن يخبرها بأنّ حبّة البندق خاصّته قد نضجت أخيرًا، وأنّه شعر برغبتها القويّة في الخروج، وصار بالإمكان قطفها، غير أنّ لسانه أصبح ثقيلًا، وانقطع نفَسُه، وتوقّف قلبه عن النبض. حبّة البندق في الكرّاسة تحت وسادته، غنيّة وكبيرة، كانت آخر ما تبقّى من جسدِه بعد أن دفنوه.

❖ أقل الكتب مبيعا

طالما كنت أقفز فوق بعض الأحجار السوداء في الرصيف الحجريّ المؤدّي إلى المنزل، تمثّل لي ذلك في القفز فوق الشرور، والفأل السيّئ.
لا أريد أن أبدو مبالِغًا في التعبير عن عواطفي، غير أنّي شعرت بغصّةٍ وقدا بدا لي البيت بعد ثلاثين عامًا كأمّي في آخر أيامها، ترتفقُ على جدار، فأتساءل: هل سبق أن كان منحنيًا على هذه الحال؟ لمّا رأيتُ أغصان الشجرة، تنهّدْت مِن على بُعد خطوات، وأنا ما زلتُ أسير على الرصيفِ الحجريّ، حتّى أنّ ذكرياتي عن هذا المنزل تدفّقت كلّها دفعةً واحدةً.
كنت طفلًا شقيًّا متطيّرًا، كثيرًا ما عذّبتني أحلامي وآمالي العظيمة بشأن المستقبل. كانت رغباتي تتجاذبني في أن أصبح طبيبًا أو طيّارًا، مهندسًا أو عالمًا، كاتبًا أو شاعرًا، حتى أشقاني الاختيار، وأنهكني التفكير والانتقال بالخيال من حلم إلى آخر. وحين باع أبي هذا المنزل؛ طلبًا للانتقال إلى المدينة، شعرت بأنّ أحلامي بدأت تتضخّم، إلى حدٍّ بتُّ معه

أتمنّى لو أنّ هناك عقّارًا يجعلني أنمو بوتيرة أسرع لأستوعبها.
أذكر أنّني، قبل أن أركب السيارة لنمضي، أوقفْتُ الرجل الذي اشترى منزلنا ومسكته من يده، واختليْتُ به جانبًا؛ لئلّا يسمع والدي حديثَنا، ورجوته أن يعتني بالشجرة، وألّا يفكّر أبدًا في اقتلاعها أو قطعها، ثم وشوشت في أذنه: إنّها تحرس أحلامي.
لم يتغيّر شيء، باب الحديد لا يزال أزرقَ اللون، أكل بعضَه الصدأ. حين فتحته، أصدر صريرًا، فطارت منه بومة كانت تقف على نافذة غرفتي - غرفتي فيما مضى- وهذا هو الفأل السيّء الثاني اليوم، بعد أن نسيت، ودُسْتُ الأحجار السوداء في الرصيف الحجري، وأنا في طريقي إلى هنا.
يُقال: تنمو الأشجارُ بسرعة إذا غادرها أهلها، وتمدّ أغصانها كما لو أنّها تحاول الوصول إلينا لاحتضاننا، وربّما كانت تلك طريقتها في التعبير عن حزنها ووحدتها.
اضطُررت إلى الزحف على ركبتيّ؛ لأصل المكان الذي دفنت فيه صندوق أحلامي، قبل ثلاثين سنة، تحت الشجرة. كنت قد لعبت لعبة طفولية، كتبتُ أحلامي جميعها في مجموعة أوراق صغيرة، خلطتها، واخترت واحدة أودعتها الصندوق، واعتبرتها قدَري.
استفزّني فضول المعرفة عدّة سنوات، وألحّ عليّ في السنتين الأخيرتين، إلى أن طفح اقتناعي بضرورة المجيء إلى هنا، ومعرفة محتوى ورقة قدري.

حين فتحت الصندوق، وأخرجت الورقة، بدت لي صفراء متأكّلة، لا أثر للحبر فيها. فصمتّ، واتّكأتُ على الجذع غير مُبالٍ بالأشواك وهي تنغرس في كتفي. لقد فسّر لي ذلك لماذا صرت كاتبًا فاشلًا، بل صاحب أقلّ الكتب مبيعًا.

❖ جثة باردة تنتظر

يجدر بالانتظار أن يُصنّف نوعًا من الأمراض المُزمنة، أو، في الأقلّ، أن يُصرف له علاج مضادّ.
يزداد الأمر سوءًا، إذا آل انتظارنا إلى شيء غير محدّد، إلى حالة تشبه حالة ترقّبنا اللحظة التي يُخرج فيها الساحر أرنبًا من قبّعته، غير أنّ الساحر لم يصل بعد، فيكونُ انتظارُنا مزدوجًا، نشعر بأنّ ثمّة فضاء كبيرًا يتاخم الروح، نحاول ملأه بأيّ شيء فلا نجد، فنعلق كما لو كنّا تائهين.
ولو لم يبقَ لي إلّا الزحف، لعجّلت بقدومي، لو تيقّنت أنّ هناك من ينتظرني بلهفة. أمّي هي الوحيدة التي كانت تفعل ذلك، جريًا على عادة القلق عند الأمّهات. لم أفقه لمعنى أن ينتظرني أحد، سوى حين فاجأني ذلك الاتصال الليلي الذي أُبلِغْتُ فيه عن وجود جثّة مبرّدة، تنتظرني في ثلّاجة الموتى!
لطالما لازمني التوحّد في طفولتي، فلم يكن ليشغلني شيء سوى الانتظار، انتظار الأب الغائب. وإن كنت، في الظاهر، أبدو طفلًا عاديًّا، إلّا أنّ أفعالي كلّها كانت مغلّفة بالانتظار، وبمحاولاتي التعيسة لملء فضاء كبير في الروح.

وفي الوقت الذي كان الصبية فيه يقضون وقتهم في اللعب، كنتُ أميل إلى الاختلاء بنفسي، فأتمدّد فوق المقعد الخشبي أراقب السماء، وأترقّب عبور الطائرات؛ لألوّح لها، وأعزّي نفسي: "لعلّ واحدة منها تحمل أبي".
في أثناء تناولي الطعام، أستدرج أمّي لعلّها تسرّ لي: "ربّما عاد أبي اليوم، سيحبّ طبق الفاصوليا، حساء العدس لذيذ، سيحبّه أبي كذلك، اتركي له بعض الأرزّ". أحلامي كلّها مشاهد لقاء مختلفة، بطلها واحد، هو أبي. حتّى في صفوفي، كنت أمارس عادة الانتظار، في حصّة الإنشاء أكتب له الرسائل، في حصّة الرسم أرسمه، أبي الذي لم يرجعْ أبدًا، ولم أره في حياتي سوى خمس مرّات متباعدة، يقول لي، وكأنّ زيارته خطأ تحتاج إلى تبرير: "لقد جئت لأهنّئك بالعيد" - تعبيرات وجهه، حينذاك- لا تختلف عنها، فيما لو كان يهنّئ من كان يجاوره في الحافلة. وفي ختام الزيارة يُطبق كفّي على حفنة نقود، ويودعني بعض الصور العائدة إليه، ويختفي.
حين كبرت، توقّفت عن انتظار أبي. غير أنّني، فيما يبدو، أُصبت بحمّى الانتظار، وربّما عجزت عن استبعاد اللهفة تتملّكني متى غرقت في انتظاري. أستلقي لأنام، فلا يمكن لأيّ شيء أن يشغلني عن الانتظار! حتّى النوم؛ فأقوم، بدلَ محاولاتي البائسة تلك، بالتسكّع في الطرقات والشوارع، صامتًا، كما لو كنت أتأمّل داخلي. لا ألقي التحيّة على أحد، ولا أردّ على أيّ منها. قد أكون أبالغ، لكن يُخيّل إليّ أنّي لو سمعت نداء استغاثة، فإنّني سأعدم أيّ استجابة، وكأنّي مغيّب عن

الواقع تمامًا، وكلّ انتباهي ينصبّ فيما أنتظره، حدس وتوقّعات، وحتى سيناريو مبدئي للحوار الذي سيحدث.
أمّي المسكينة، عرفت معاناتي مبكّرًا، وبعد أن أصابها اليأس من علاجي، حرَصَت على ترتيب الأشياء، وتهيئة الأحداث؛ لتبدو كأنّها وقعت بغتة، ولكنّ قدرتها على المباغتة، بعد أن كبرتُ وكبرت هي كذلك، أصبحت محدودة.
لا يمكنني أن أنسى أسوأ ساعات الانتظار التي حرمتني النوم، تلك الليلة التي قضيتها متسكّعًا في الشارع، أنتظر أن ينتهي سوادها الشتوي البارد الطويل. ويهبط الصباح...! فأذهب لإجراء أوّل مقابلة عمل. هناك كان انتظارًا مزدوجًا ومُكلّفًا نفسيًا، لم يبق أحدٌ في الشارع بعد منتصف الليل سواي وبعض القطط، غير أنّني كنت أجده شديد الازدحام إلى درجة الاختناق، أذكر أنّني، لفرط إسرافي في التفكير، كنت، بين لحظة وأخرى، أقوم بتعديل ربطة عنق وهمية، أو تعبئة معلوماتي الشخصية في الهواء. ولم أكتفِ بذلك؛ بل رحت أخترع أسئلةً للمقابلة، وأجيب عنها في رأسي.
غالبًا، وبعد التعافي من حمّى الانتظار، كان يغمرني شعور بالنشاط، مهما كان يبلغ منّي التعب، كما لو أنّني آلة شُحنَت بالطاقة.
يا للمفارقة! جثة باردة متخشّبة، تتمدّد هناك تنتظرني. وجسدي البارد يتسكّع في ليلة شتوية طويلة، في قلق، وينتظر!
لم أجد بُدًّا من الكفّ عن محاولاتي البائسة في النوم، أو الانشغال بأمرٍ ما. خُيّل إليّ أنّ الساعة لا تتحرّك، إنّها منتصف

الساعة الواحدة صباحًا، وقد زاد حقدي على الدقائق التي حبلت بها تلك الساعة، فبدت وكأنّها تصرّ على أن تعيش أطول من عمرها الافتراضي، إمعانًا في تعذيبي. قبل ذلك، بمدّة ساعتين ونصف، لم يكن رفاقي على وفاق، فقد اختلفنا حول موضوع ما، وكاد جدالنا أن ينتهي بالتشابك بالأيدي، حينها أنهينا السهرة باكرًا. عدت إلى منزلي أجرّ نفسي جرًّا، في ملل يشوبه أسًى أجهل أسبابه.

ومِن فور دخولي، سمعت رنين الهاتف، جاءني صوت الطرف الآخر جافًّا ورسميًّا، بادرني بالتعريف بنفسه والجهة التي يتبعها، لم أفهمه في البدء. سألني إذا كنت ابن فلان، ونطق اسم أبي الرباعي! أجبته مصادقًا، فطلب منّي الحضور إلى المشرحة التابعة لمشفى المدينة في تمام الثامنة من صباح اليوم التالي؛ لأتعرّف جثّة أبي، فقد كانت من بين عشرات الجثث العائدة لمن قضى من العمّال نحبه في حادثة انهيار الجسر، واختلط عليهم الأمر، فبعضُها لا يزال مجهول الهُويّة.

لم يكن عندي مقدار يُلحظ في حبّ والدي، في الواقع لم أكن أعرفه بالشكل الكافي، ولم تجمعني به أيّ علاقة تجعلني أحدّد مشاعري تجاهه. في المرّات القليلة التي رأيته فيها، كنت أشعر بنفسي في حضرة شخص، أنا حديث العهد به. ومع ذلك، سيحزنني أن أراه جثّة هامدة كإنسان، يُحتمل ذلك؛ كون مشاعر الحبّ الأوّلية التي حرَصت أمّي على أن أحتفظ بها، تجاه أبي، لا تزال كما هي، على حالها؛ وهي إلى حد ما، المشاعر نفسها التي يكنّها أيّ ابن لأبيه الغائب: حبّ واشتياق

في الطفولة، كره وحقد في المراهقة، وفي الشباب مشاعر غير منطقية تصل فيه إلى حدّ تتوسّل المبرّرات لغيابه.
ارتديت ثيابًا داكنة، وضعت صورة له في جيبي العلوي، وخرجت متّجها نحو المشرحة، ومِن فور دخولي رأيته وسط الحشد الباكي حيًّا يتنقّل بين موظّف وآخر، يصرخ كمجنون: "لا أزالُ على قيد الحياة، ألا ترون؟ لقد كتب رفاقي اسمي في دفتر الحضور لكيلا يُنقص من راتبي، كنت نائمًا في فراشي.. لم أمت.. قم بحذف اسمي المدرج خطأ في قائمة الضحايا، ها أنا أمامك لم أمت". لم أعثر على مبرّر لتبسّمي في ذلك الحين، غير أنّني حرَصت على ألّا يراني، لكني لم أفلح، فقد سمعته يناديني، إلا أنّني أسرعت الخطى وتبعت الموظّف، فحال بيننا الحائط الزجاجي. وبنظرة خاطفة، رأيته يراقبني عبر الزجاجِ مدهوشًا ومشوّشًا وغاضبًا.
كانت فُجاءةَ تلك الرسالة التي أردت أن تصله، بحجم فجاءة تلك الرغبة في الانتقام، ومواصلة الادّعاء، والجثّة التي تمّ استدعائي للتعرّف إليها كانت لشخصٍ بدا لي قد تجاوز الخمسين. الغرز الطبّية التي شوّهت وجهه جعلتني أشهق شهقة أوحت ودموعَ الهلع إلى الموظّف بموافقتي، وحين تذكّرت أبي الذي كان يراقبني من حيث هو، انحنيتُ وقبّلت رأسه مختنقًا بالبكاء، كما لو كان ذلك الأصفر البارد الممدّد أمامي بلا حراكٍ هو أبي فعلًا.
قاطعت ملحوظةُ الموظف استرسالي في دور المفجوع بوالده: "أتمنّى أن تتمالك نفسك، ينبغي لك أن تأتي معي لاستكمال أوراق الدفن".

نظرة أخيرة نظرتها إلى أبي، قلت عبرها: "بالنسبة إليّ، كنت قد متّ منذ زمن بعيد". وبدلَ أن أتبع الموظّف، فررت هاربًا، كما لو أنّني قتلت أبي حقًّا! طعنته، أو أطلقتُ النار عليه.

❖ الشوارع ليست خرساء

قبل عشرة أعوام، لم يكن ليُرفع إلى مقام الحكماء، ولم يسبق أن طلب أحد من الناس رأيَه في أيّ أمر، غير أنّه أقبل من بعيد يمشي مِشية الحكماء، واضعًا يدَيه خلف ظهره مطرقًا رأسَه، كمن أثقله التفكير.

كانوا خمسة عميان يتعاركون على امتلاك شمعة. جَلَبَتُهُمْ قطعت حبل أفكاره، وجعلته يتوقّف ويُنصت.

سمع احتجاج الأوّل: "إنّي أكثر من يحتاج الشمعة منكم؛ لعلّي أبصر يومًا ما"، قاطعه الثاني: "كلّنا قد نبصرُ يومًا ما، إلّا أنّني أريدها رجاء حصولي منها على بعض الدفء"، قال الثالث: "بالنسبة إليّ، ليست الشمعة مجرّد نور فحسب، إنّها تمنحني الأمل"، فردّ عليه الرابع: "لن ترى نورَها على أيّ حال. أمّا الأمل منحة النور الذي زرعه الإيمان في قلبك؛ فهو أطول وأبقى من نور أيّ شمعة". صرخ الخامس: "من يتجرّأ منكم ويأخذها منّي، قتلته".

وبخفّة سريعة، بادر الرجل، ذو مشية الحكماء، وقام بسرقة الشمعة من جيب الأعمى الخامس، ثمّ أشعلها، ووضعها على بعد خطوتين منهم، ومضى، في حين بقوا مستمرّين في

العراك، من دون أن تكون لديهم أدنى فكرة عن النور الذي أحاط بهم.
وتمرّ عشرة أعوام...
الشوارع ليست خرساء، إنّها – في حال أعمَلْت عقلك ـ تجعل منك امرءًا حكيمًا، فتخيّل أنّك تمرّ بخمسة عميان يتعاركون على شمعة، وأنت المبصر الوحيد بينهم، مَن يمسك أعواد الثقاب بيده؟
هذه حالنا، حين نتقاتل على امتلاك أشياء لا نستطيع إدارتها، أو تحريكها وحدنا.
قاطعه الجمهور بالتصفيق الحارّ.

❖ ثمانية وتاسعهم أنـا

اسمي محمّد. في الوقت الحاليّ، أجلس على قطعة إسمنت، لم أتبيّنْ بعد إذا كانت جزءًا من جدار مطبخنا، أو من غرفة الضيوف، وربّما كانت سقفًا لبيتِ الجيران، فقد سجدت البيوت، وحين السجود، لا يعود أحد يختلف عن الآخر بشيء. هذه أمّي هناك، وذلك أبي، بينهما أخواي وأختي، في الطرف الأيسر جارنا وزوجته، وفي الطرف الأيمن ابن جارنا.

أمّي امرأة أمّيّة، لكنّها تعرف كيف تُعبّر عن حبّها لأبي، وكيف توزّع حنانها علينا بالتساوي، من دون اللجوء إلى آلة حاسبة، أو أخذ درس في القسمة. والأهم أنّها تعرف كيف تعبّر عن انتمائها للوطن، من دون شعارات زائفة، وأناشيد ممسوخة كعلكة مُضغت طويلًا حتى فقدت طعمها. وهي حين ترشق المحتلّ بالحجارة، تشتمه بألفاظ لا يفهمها إلّا الفلسطيني الطاعن في الوطنية.

أبي رجل وقور، شابَ شعرُه؛ لأنّه ينام في كلّ ليلة غاضبًا يلعن اليهود، ويتوعّد أشخاصًا آخرين لا أعرفهم. يحكي لي دائما عن "وعد"، لم أحفظ اسمه بعد، وكيف صارت فلسطين متبوعة بصفة "المحتلّة".

أخواي توأمان، أحدهما يصاب بشظيّة فيتألّم الآخر بدلًا منه، وينتقم له. يعودان إلى البيت كلّ مساء ببطولات صغيرة يسردانها على مسامع أبي الذي يُحيّي فيهما الروح الشُجاعة، فأستغرب كيف يبارك أبي أفعالًا غير سوية، كافتعال حريق أو رشق أحدهم بالحجارة أو النار.

أختي تقرأ أشعارًا ثورية بصوتها الجَهْور، فيصفّق لها جميع الحاضرين عداي؛ لأنّني لا أفهم ماذا تقول! ستتزوّج عمّا قريب من ابن الجيران الذي يكتب شعرًا في المقاومة، يطبعه وينشره عبر الإنترنت حتى صار شاعرًا يعرفه جميع الناس.

جارنا ليس لديه حيلة، يتعكّز عصاه، ولا يصل إلى أيّ مصادمة مع المحتلّ إلّا بعد فوات الأوان، يقول إنّه يتمنّى لو يصل باكرًا ليستشهد فحسب، ولكنّ زوجته تخفي عنه عصاه كلّ مرّة كيلا يصل. هؤلاء هم عائلتي، ثمانية، وتاسعهم أنا. والرجل القويّ هناك، يبدو لي أنّه قد انتهى من حفر القبر الثامن، والأخير.

❖ الأم التي رأت بقلبه

أحبّ السير على الأقدام، إنّه يجعل مخيّلتي تتفتّح، لذا، كلّ يوم، أوقف سيارتي في مدخل الشارع، وأكمل طريقي إلى معهد الفنون سَيرًا، أتأمّل الناس والمتاجر تأمّل الفنّان.
ذات يوم، استوقفتني سيّدة تسألني عن طفلة تائهة، وقد بدت أُمًّا مرعوبةً. في لحظتها، جهلت سبب اضطراب شعوري لظنّي أنّها مخطوفة. راحت تصفها لي وصفًا متناهيًا في الدقّة، إلى درجة تخيّلتها واقفة أمامي، وكدت أن أهتف: ها هي هنا! وأشير إلى قلبها.
أنهيتُ صفوفي باكرًا، وعدتُ إلى المنزل. ومِن الفور صعدت إلى العُلّيّة - بعد انقطاع طويل عن الرسم - وأخرجتُ فرشاتي وأصباغي، ورسمت الطفلة كما وصفتها أمّها لي. أردت أن أعبّر عن اهتمامي. وهذا أقصى ما يستطيع تقديمه أيّ فنان.
ثمّ نسيت الأمر تمامًا.

بعد عدّة أيام، بينما أنا أقلّب في قنوات التلفاز، رأيت الأمّ في تقرير إخباري تُطوّق عنق ابنتها بيدها اليمنى، وتحكي للمراسل كيف عثرت عليها.
استطعت أن أجد عنوانَها بعد محاولات مُضنية، صعدتُ إلى العلّيّة، غلّفت اللوحة التي رسمتها بورقة لتغليف الهدايا، مطبوع عليها شخصيّات شهيرة من عالم الرسوم المتحرّكة، وزيّنتها بشريطة "دانتيل" تناسب ذوق طفلة.
حملت اللوحة برفق، واتّجهت إلى العنوان المدوّن على ورقة صغيرة بيدي. كدت أتراجع من على العتبة، لولا أنّ الطفلة رأتني من النافذة، وأسرعت إلى فتح الباب! وودت تقديمها إليها على اعتبارها هديّة عودتها إلى أمّها سالمة.
استدرت قافلًا، وأنا أتأبّط لوحتي، وثمّة غضب هائل يكبر في داخلي. الطفلة التي رسمتها من خلال عينيّ أمّها كانت أكثر جمالًا من ذات الوجنتين المتّسختين ببقايا الطعام، ناهيك من لسان غير مهذّب استقبلتني به عند الباب، إذ قالت لي، حين رأت اللوحة: "أنا أجمل منها!"، ثمّ أغلقت الباب في وجهي.

❖ معركة عقلية

بينما كنت أعبر الممرّ، شيءٌ ما مُريب شدّني لأتوقّف متأمّلًا لوحة معلّقة على الجدار بطريقة لافتة. لم أجد سببًا لشعوري بالغرابة وأنا أتأمّلها!

ظهر في اللوحة رسم زيتي لامرأة ريفية تحمل سلّة فاكهة. شعرت بالضيق؛ لأنّني عجزت عن فهم شعوري المرتبك تُجاه تلك اللوحة. هل هو بسبب ملامح المرأة العادية - مع أنّ الفنّان كان بإمكانه رفع مستوى جمالها - أم بسبب المغالاة في الألوان الدافئة، أم أنّ مردّه لاستعراض اللوحة في مكان عمل رسمي كهذا؟!

لم يكن من الطبيعي أن أتجاهلَ ما جئت لأجله، وأمضي اليوم كلّه واقفًا، أمام المرأة في اللوحة، أبحث عن سبب شعوري بالغرابة تجاهها. فقد جئت لتأدية عملي في المراسلات المكتبية.

بحثت عن الموظّف المسؤول، وفي استعجال طلبت منه أن يوقّع على ورقة الاستلام. موقفي هذا، يشبه موقف طفل يريد الجمع بين الهرب من حضرة أحدهم، قبل أن يُقبض عليه متلبّسًا باستراق السمع، والإمعان في هذا الاستراق.
خرجت، وما زال شعوري بأنّ هنالك شيئًا ما مفقودًا لا أعرف كُنْهه، أشغلَ تفكيري طَوال اليوم. حين عدت إلى المنزل، وبينما أنا أخلعُ حذائي، انتبهت إلى أنّني كنتُ أرتدي فردتَي جورب مختلفتين، ثمّ فجأة تذكّرت اللوحة بتفاصيلها كاملة كما لو أنّها أمامي، كانت الغرابة تكمن في المرأة، أو ربما، في سلّة الفاكهة التي كانت تحملها؛ فهي مليئة بالتفّاح، ولكن في يدها الأخرى تحمل برتقالة!
ضحكت، ونسيت الأمر.
أمس ـ بعد شهرين ونصف، من تلك الحادثة ـ مررت بجانب المبنى، خطر على بالي أن أعود لأتأمّل اللوحة، مرّة أخرى، وقد عثرتُ على ما أثار استغرابي فيها.
إلّا أنّها لم تكن موجودة! لقد استُبدِلت بها لوحةٌ أُخرى، "بورتريه" لشخصيّة مشهورة. تلفّتُّ حولي، فربّما جرى تغيير موضعها.
لمحت عامل نظافة، اتّجهت نحوه، وسألته: "كانت هناك لوحة لامرأة، تحمل...!".
قاطعني: "نعم، لقد جُنّ جنونه. فجأة، حطّم إطارها، ومزّقها بوحشية".
ـ "مَن؟". سألته في استغراب.

- "هو أحد الموظّفين! كان، كل يوم، يتحيّن صرف قرابة نصف ساعة في تأمّلها. هذا، عدا أوقات الفراغ التي يستغلّها ليقف أمامها".
ثمّ أكمل هامسًا: "حتى ظننّا أنّه وقع في غرام تلك المرأة".
هززت رأسي حاثًّا إيّاه على المتابعة، فأكمل: "ناداني ذات يوم وسألني: "هل تشعر في أنّه ثمّة شيء غريب في هذه اللوحة؟"، وحين أجبته بالنفي، غضب ومزّقها، ثمّ خرج يشتم بألفاظ غير مفهومة، ولم يعد بعد ذلك اليوم أبدًا".
قلت مبتسمًا وأنا أغادر: "بفضل الجوربين، لم أُجنّ مثله".

❖ خمس أفواه مفتوحة لتأكلني

منذ أن أخبرتني أمّي بأمر القطّة، وأنا أعمل في الحقل كبقرة المحراث، لا أتذمّر: يكفي، لقد تعبت!

أخشى أن تشعر أمّي بالجوع، وتماثل القطّة التي أكلت صغارها.

خفت على نفسي أكثر من خوفي على أشقّائي الأربعة؛ لأنّني كبير البدن، ممتلئ الخدّين، لي ذراع قوية، وأبدو كوجبة شهيّة لأمّي.

لم أقتنع بمخاوفي أوّل الأمر، لم يكن رعبي بالغًا إلى ذلك الحدّ، حتى سألتُ شقيقتي الكبرى، متأمّلًا إجابة مطمئنّة: ''أكُلُّ الأمّهات يفعلن ذلك؟''.

من دون مبالاة - وهي، في الخارج، تحمل عصا غليظة تضرب بها السجّادة لتنفض الغبار من فروتها - أجابت: ''نعم كلّ الأمّهات، ألم نخرجْ من بطونهنّ؟! إذن وحدهنّ يملكن حقّ إعادتنا إليها مرّة أخرى''.

كان المحصول يكفي قوتَنا عامًا كاملًا. أبي مُزارع نشيط، يملك دراية بما ستؤول إليه الأمور، قبل كلّ حصاد. وقد كان قلقًا، كذلك أنا كنت أتخبّط في ثلاثية اضطرابي: مِن جهة قلق أبي، ومِن الجوع الذي سيعضّ بطوننا، ومن جوع أمّي في حال تلف المحصول!

نام أبي في تلك الليلة، وترك قلقَه في الخارج، وكأنّه أسلمه للحشرات. سربٌ هائل من الجراد قضى على محصولنا كاملًا، لم يترك لنا سوى القشّ.

انهار أبي، فتركنا، وسافر على أمل اللحاق بموسم الحصاد، في بعض المزارع البعيدة.

مع مرور الأيام، كان طعامنا يقترب من النفاد، حتّى زارنا الجوع أخيرًا، وقرّر الإقامة في بيتِنا. وقد تراءى لي، وكأنّه مخلوق غير مرئيّ، مخيف وبدين، يحتلّ داخلي، ويعصرني عصرًا؛ ليأكل بقايا ما في معدتي.

نمنا بلا عشاء، يعصرنا هذا الزائر بقسوة، ويزيد، كلّما تكشف خواء بطوننا. أرسلت قُبُلاتي يحملها الهواء إلى أبي البعيد، إلى أشقّائي النيام حولي، ونمت على يقين مِن أنّني لن أستيقظ سوى في بطن أمّي. أيقظني صياحُ ديك الجيران، فتخيّلت أنّني لا بُدّ مِن أن أسبح في سائل هلامي لزج يشبه السائل الذي يحيط بصغار الماعز حين تولد. جسدي يتحرّك بثقل، والرؤية شبه منعدمة. مسحت عينيّ بيديّ، فرأيت أمّي تمسك برغيف في يدها! ارتعشت متسائلًا: هل ستأكلني بالخبز كما لو أنّها تأكل قطعة من الجبن؟

تواريت تحت اللحاف طويلًا، حتى سمعتها تناديني. كان أشقّائي يجلسون في دائرة ضيّقة، لا مكان لي فيها سوى الوسط. بلعت ريقي، وتقدّمت نحوهم ببطء أتفكّر: إنّها لن تأكلني وحدها!

نهضت، ونادتني بإشارة من يدها؛ لأجلس مكانها في الدائرة، وراحت تقسم الرغيف بيننا بالتساوي، ثمّ قالت، وهي تجلس على المقعد تشرب مغليّ قشور البنّ: "لا أشعر بالجوع".

❖ الشعر يغذي الروح ويترك المعدة فارغة

مرّ شاعرٌ بسيّدة أربعينية بدينة كانت تروي الورد في فناء دارها، فبادرها قائلًا: إنْ تهديني وردة من ورودك؟

- مقابل ماذا؟ ردّت باستغراب.

- قصيدة غزل!

فقالت، وهي تضحك: لو أنّ الشِعر يفيدُ، لكساك ثوبًا أفضل ممّا ترتدي!

ثمّ أطرق برأسه مُفكّرًا، يستجوبها: أمقابل المال؟

وللحال، لمعت عيون السيّدة، ثمّ قطفت وردة، وقدّمتها إليه.

قبل عدّة سنوات سبقَت زمن تلك الحادثة - قبل الحرب تحديدًا- كان بيعُ الورد أمرًا محظورًا على الناس، باعتباره هبة الطبيعة لهم، والهبات لا تُباع. غير أنّ الحرب أغضبت الطبيعة، وصارت لا تهدي الناس إلّا الشوك. أمّا الورد؛ فمن

أراده؛ فعليه أن يزرعه بنفسه في الشرفات والحدائق، ويعتني به، ثمّ يهديه إلى من يحبّ متى شاء.

ومع أنّ بيع الزهر لا يزال محظورًا، فقد أعطت تلك السيّدة البخيلة الوردة للشاعر مقابل المال، ويبدو أنّه صار يُباع في الخفاء، وهذا ما أفقده قيمته التي أُدرجت في مصافّ السلعة المعروضة في الأسواق.

أمّا الشاعر؛ فقد كان يلقي الشعر يسلّي به الناس في الشوارع والطرقات، إلى أن التقى فتاة سلبت شيطان شعره، ولكنّها ما لبثت أن استبدلت به عاشقًا، فقد صدّته قائلة: "الشعر يُغذّي الروح، ويترك المعدة فارغة".

لم يكن أمام الشاعر سوى هجر الشعر بحثًا عن عمل، فبعد عدّة سنوات، جمع من المال ما يكفيه. وعند عودته، صدف في طريقه سيّدة أربعينية تروي الوردَ في فنائها، فاشترى منها وردة؛ ليقدّمها إلى حبيبته التي وصل إليها متأخّرًا؛ لأنّها كانت قد تزوجت.

من شدّة خيبته، قفل وهو مطرق في إعادة حساباته، فمرّ بحمار جرٍ في طريقه، فأطعمه الوردة، وقرّر أن يعود إلى إلقاء الشعر في الطرقات.

ولأنّه قصّر في إعجاب الناس عند إلقائه لشعر الفكاهة، فقد صار موضع نقد. لذا، لم يكن ليسلم من الاستهزاء والشتم، والرمي بالحجارة، أو ببقايا الطعام، وكثيرًا من الأحيان، لم يكن ليسلم من الضرب.

❖ حلوى المصاص

... أخرج من جيبه العلوي حلوى مصّاص، أزال غلافَها بتوتّر، ووضعها في فمه، وأكمل:
الحياة تمُنح مرّة واحدة. وتُستردّ مرّة واحدة، إلّا أنّني وُلدتُ مرّتين، ومتُّ مرّتين. كان هذا قاسيًا، ولا يمكن احتماله. بعد انتظار دام خمسة عشر عامًا، ظننتُ أنّني لن أصبح أبًا أبدًا؛ فاستسلمت. ولكنّ الهبات الإلهية تأتي مفاجئة ومبكية من فرط السرور. ها أنا داخل دنيا الأبوّة. رُزقت بها، أجمل طفلة رأتها عيناي. كانت تستقبلني عند الباب، عند عودتي من العمل بعينَين مبلّلتَين بالماء، وتقول لي: "بابا، لقد كنت أبكي!". فأحتضنها، ومن جيبي العلويّ أُخرج حلوى المصّاص التي أخصّها بها في كلّ يوم، وبحبّ، أزيل عنها الغلاف الخارجي، وأعطيها إيّاها.

خمسة عشر عامًا والزوايا فارغة، كلّ شيء نتركه يبقى مكانه، مِن دون أن تعبثَ به يدٌ شقيّة، كذلك البيت هادئ، فلا شيء يهزّ أركانه. قائمة مشترياتي هي نفسها، اعتاد عليها البقّال الذي لا أعدم مفاكهته بنكتة عن نفسي، حين يصل دور شرائي حلوى المصّاص تحليةً لأبناء أختي.

أذكر أنّها اقتحمت عالمنا الصغير كحلم، وبتنا نألف طيب الأطفال نفَسًا في المنزل، وانتشار رائحة الحليب، وانشغال الزوايا باللعب، وبقايا الطعام الملتصق بذراع المقعد، واختفاء كثير ممّا هو قابل للكسر، تعوّدنا صراخها، وعدم رغبتها في النوم، كانت بمنزلة حياة جديدة مُنحت لنا، كيف لا، وقد قلبَت حياتنا رأسًا على عقب!

ذلك اليوم، تحسّستُ جيبي العلوي، كعادتي، قبل أن أتأكّد من وجود الحلوى، غير أنّها لم تستقبلني عند الباب. ظننتها نائمة، وقد أرهقها غضبها الذي استثاره علمُها بقدوم شقيق لها بعد أشهر، وخوفُها من أن يقاسمها هذا الزائرُ الدلالَ. كان الهدوء مُريبًا، وقد خفق قلبي لرائحة أُغلق عليّ تمييزها بادئًا. ناديت عليها أوّلًا، ثمّ ناديت زوجتي، لم أتلقَّ أيّ ردّ! عبرتُ الصالة الرئيسةَ متّجهًا إلى غرفة اللعب، فوجدتهما نائمتين تتّكئان على دمية كبيرة. ابتسمت، وهممت أن أستدير ببطء، لولا أنّ رائحة الغاز التي استطاع أنفي تمييزها هذه المرّة أعادتني لأوقظهما، فلم تستيقظا أبدًا.

❖ صانع اللحظة

أحمل الكاميرا الخاصّة بي على كتفي، أتجوّل بها في الشوارع والأزقّة، أطارد اللحظات التي لا تتكرّر. بالنسبة إليّ، التقاط الزمن وتحويله من لحظة آنيّة إلى لحظة أبديّة، في داخل إطار، هو محضُ إعجاز.

هذه هي وظيفتي، وأنا أحبّها.

ذات يوم، تلقّيتُ اتصالًا من أمٍّ تريدني أن أصطاد لها لحظة، رغبَتْ بشدّة في تخليدها. لحظة خطوات طفلها الأولى.

اتّفقنا، بعد أن تناقشنا طويلًا حول أجر، لم أكن لأقتنع به لولا أنّني سمعت صوت أنفاسِها قد بدأ ينقطع، وقد يكونُ كذلك من شدّة الغضب.

استقبلتني في بيتها في الساعة الرابعة عصرًا. أشارت إلى طفلها، في أثناء سؤالها عن مشروب أفضّله ضيافة. كان قد استيقظ من النوم حديثًا، شعره ناعم وكثيف، يكاد يغطّي عينيه

الكبيرتين البنّيتين. كان طفلًا جميلًا وقويًا، ذا وجنتين ممتلئتين، يعلوان فوق فم صغير.

مرّت نصف ساعة، مثل نمر يراقب فريستَه بقيتُ مُستعدًّا خلف عدستي.

جهدت أمّه، وهي تدفعه إلى الخطو تجاهها، ملوّحة له بالمغريات من الحلوى والألعاب، فتعبَت، واتّكأت على المقعد، أمّا أنا؛ فقد بقيتُ مستعدًّا ألزم وضعيّتي. فقد تمرّست، وعرفت أنّ شرود الفكر يعني شرود اللحظة، وضياعها. حتى أنّني حين سمعت ضجّة خلفي، عدمت الالتفات. لعلها عندما ضاقت ذرعًا، حاولَت جذب انتباه الطفل عبر إخافته، وقد نجحت، فما كان منه إلّا أن خطا نحوَها يناديها.

كانت ثلاث خطوات مرتعشة، لكنّني استطعت التقاطها بوضوح تامّ. استدرت نحوها سعيدًا بإنجازي، لأجدها مستلقية على الأرض فاقدة وعيها، وقد سقط غطاء رأسها الذي كانت تخفي به صلعها.

في الأسبوع التالي، لمّا جاءني خبر موتها بعد يومين، على أثر نقلها إلى المشفى، وضعتُ صورة واحدة من بين الصورتين في مغلّف أدخلته دفعًا من تحت باب بيتها، واحتفظت بالصورة الأخرى، واعتبرتُها أجرًا لم يتسنّ لي أن أستلمه أبدًا.

❖ لن أكون سندريلا

سألتُ أمي: لماذا أُترَك حافيةً على الدوام؟ وأخواتي كلّهنّ يملكْنَ أحذية؟
أجابت: ما زالت قدمُك صغيرة لتلبسي حذاء أختك. نحن عائلةٌ تتوارث الأحذية. لا مال لدينا لننفقَه على حذاء جديد ضياعًا. ستكبرُ رجلُكِ عنه في غضون أشهر قليلة، وليس بعدكِ مَن تنتعله. هذا المال لا يكفينا قوتًا سوى لأيّام معدودات.
لم أفهم إجابتها على أيّ حال، ولكنّني عرفت أنّ الحذاء الأبيض الجميل الذي على الرفّ الأعلى، في غرفة المعيشة، مخصّص لي.
يا للبهجة! ثمّة حذاء ينتظرني أن أكبر!
كلّ ليلة، اعتادت أختي الكبرى أن تحكي لنا حكاية "سندريلّا"، تلك الفتاة الفقيرة التي خذلها السحر حين انتصف الليل، وأسقطت حذاءَها حين دهمها الوقت، وهي

عائدة في خطى الخوف بأنفاس العجلة. ولأنّ أشياء الفقراء لا تضيع، فقد أعاده إليها البطل الأمير.
ما يبهرني في القصّة تحديدًا، هو حين تصل أختي إلى الجزء الذي يتعلّق بقياس الحذاء في الحكاية، وأجدني، في هذه الجزئية، أتحسّس قدمي بقهر. وكلّ يوم، في الصباح، أسبق أخواتي إلى الاستيقاظ، أجرّ علبة الزيت المعدنية لتوازي الرفّ، فأعتليها؛ لأصل بأطراف أصابعي إلى الحذاء، بعد أن أشدّ جسدي حتى يكاد يتمزّق، فأُنزل الحذاء، وأقيسه، لأجد أنّه لا يزال كبيرًا على قدمي، فأعيده إلى مكانه.
حين تقيم أمّي صلاة الفجر – أقلّدها- فما إن تصل إلى الجزء الذي ترفع فيه كفّيها إلى السماء، وتطلب من "الله" أن يحفظنا ويحمينا، حتّى أكثّف رجائي طالبًا من "ربّ أمي" أن تكبر أقدامي بسرعة.
"صرتِ ثقيلة". هذا ما قالته لي أختي، وهي تدلّك كتفها الأيسر، ونحن سائرات، وقد تركتني أمشي خلفهنّ حافية. شعرت بالأسى، وبسبب قصر قامتي؛ لم أكن أرى من الماشين أمامي سوى أقدامهم، أحذيتهم تحديدًا. من هنا صرت أعرفُ أنواع الأحذية كلّها، وتوطّدت علاقتي بها عبر التفحّص والتحديق. أفكّر كثيرًا: لو أنّني أرتدي حذاء، لكنت أسقطتُه عمدًا، فيعيده إليّ الأمير، ويشتري لي عشرات الأحذية معه.
لا أدري، إمّا رفقًا بي، وإمّا بسبب عامل الملل، استبدلت أختي بالحكاية قصّة أخرى لم تعجبني. لذا، بتّ أنام قبل الجميع، وبقيت على عادة الاستيقاظ مبكرا لقياس الحذاء.

ذات يوم، التمستُ حيلتي، قاصدةً إلى اعتلاء علبة الزيت صباحًا، ولكنّ أمّي كانت قد استعملتها مؤخّرًا، ونسيَت تنظيف سطحها من بقع الزيت التي تسبّبَت بزلّة قدمي، فسقطتُ، وكُسرت بعض العظام الأساسية في ظهري.

يبدو أنّ الأطبّاء توقّعوا حالتي الصحّية، إلى مدى بعيد، فأنبأوا أمّي بأنّي لن أقدر على المشي بعد سقطتي هذه أبدًا.

ليس سبب حزني هو عجزي عن المشي في الواقع؛ بل سببه أنّي لن أكون، بعد الآن، "سندريلّا"، ولو حتّى في الحلم.

❖ الحياة انتحارا

ذات جدال، بعد وفاة أبي، قالت لي أمي: تمهّل! ما زلتَ طفلًا.
كان عليّ أن أقنعها – لو وافقتني على أخذ المبادرة! بأنّني سأكبر عشر سنوات من أجلها، ولكنّها أصرّت على أن تعمل "خادمة"؛ لتُعيلني وجدّيّ.
أتذكّر هذا، وفي يأس يصل إلى حدّ الانتحار أكتب رسالة: "مرحبا، اسمي: سيّد لا أحد، شهرتي "ابن الخادمة". لصق بي هذا اللقب في المدرسة إلى حين تخرّجي في الجامعة! لهذا السبب كرهت أمّي، وهجرتها هي والحيّ والوطن. عمري الآن يتاخم أواخر الثلاثين، أستيقظ في الصباح؛ لألتزم عملي، من حين وفاة زوجتي، أقصد إلى أهلها؛ كي أمضي العصر مع ابني، وفي طريق عودتي إلى المنزل أقف قليلًا، أراقب العالم كيف ينمو مِن دون أن أكون طرفًا فيه. وفي كلّ ليلة عند

الساعة العاشرة مساءً تُعلَن وحدتي! يتوقّف هاتفي عن الرنين، لا أحد معي لنتعارك على "الريموت كونترول"، العصير في الثلاّجة كما تركته في الأمس، لا شيء جديدًا يطرأ على علبة الحليب، سوى انتهاء صلاحيّتها. كلّ ليلة في الحادية عشرة مساء أكرّر نفسي... وأنام. منذ ثلاثة أيام لم أتلقَّ أيّ اتّصال، منذ أسبوعين والتلفاز على حاله ثابت على القناة الوثائقية. كذلك، منذ شهرين وأنا لا أزال أستعمل أنبوب معجون الأسنان نفسه، ولمّا ينتهِ نصفُه بعد. أترك الباب مفتوحًا، أنام لعلّ لصًّا ما يدخل فيقتلني، ثمّ يسرق أشيائي الثمينة! فلا تغيير، ولا تبديل، لكن، حتى اللصوص، يبدو أنّني لا أثير اهتمامهم.

أمس، كانت ذكرى ميلادي التاسعة والثلاثين، لم يهنّئني أحد سوى المصرف برسالة نصّية بوساطة هاتفي. كذلك، صديقة لا أعرفها في ضمن قائمة الأصدقاء العريضة في "الفيس بوك": أراسلك إذ قرأت ردّك على سؤال الباحث: "هل ستكرّر تجربة الانتحار مرّة أخرى؟" أريد أن أعرف لماذا خرجت "لا" منك حادّة وصادقة جدًّا!".

أودعت رسالتي بريد شخص اخترته في عشواء، من بين عدّة أسماء في قائمة طويلة تحت مسمّى: "أشخاص نجوا من تجربة انتحار فاشلة". وانتظرت الردّ.

صبغ الانتظار أيّامي بطعم لاذع، وإنّما كان جميلًا. بعد أسبوعين، تلقّيت منه هذا الردّ: "عزيزي السيّد لا أحد. أنا كذلك، كنت لا أحد. وأشبهك تمام الشبه. في اللحظة التي

رميت فيها بنفسي من الشرفة، تذكّرت أمّي فورًا. تهيّأ لي أنّني أراها تعبر الشارع المؤدّي إلى بيتنا، وهي تحمل بيدها أوراقًا تفيد بأنّها حاملٌ بي. على مدى حياتي كلّها، لم أر أمّي تتبختر سعيدة في مشيتها، إلّا من أجل تلك اللحظة التي ظنّت معها أنّها تملك العالم لمجرّد وجودي نطفة في أحشائها، فكيف إذن لو كنت رجلًا سعيدًا وناجحًا؟! سأحافظ على حياتي".

أين أمّي الآن؟ صفعت نفسي؛ حقًّا، لأنّ أخبارها غابت عنّي، حتّى أنّي أجهل ما إذا كانت على قيد الحياة! المدّة القصيرة التي قضيتها في المطار والطائرة، إلى حين وصولي المنزل حيث ولدت، أدركت أنّني أعيش، وأنّني أشعر. ولولا أنّني مُحاط بالناس لبكيت، ولصفعت نفسي مرّة ثانية، ومرّات عديدة.

فوق العتبة، تنهّدت طويلًا، قبل أن أطرق الباب من دون أن يفتح أحد لي. تساءلت: هل ما زالت أمّي تعمل خادمة؟ حين أدرتُ ظهري للباب قافلًا، رأيت قبرًا تحت شجرة في فناء المنزل. تسمّرتُ أمامه طويلًا، قبل أن أتّجه إلى المخبأ الذي اعتادت أمّي أن تضع لي المفتاح فيه حين تتأخّر في خدمة الناس، غير أنّني لم أجد المفتاح في مكانه؛ بل وجدت ورقة ذات صفرة تنعي لي موتها منذ زمن طويل، كُتب فيها: "بنيّ؛ إذا عدت يومًا ما، فعليك أن تكسر الباب في حال أردت الدخول، أحسبك تجيد كسر الأشياء، ولا تأبه! فلقد كسرت قلبي من قبل".

وبسبب انتفاء عنوان يجمع تراسلنا مع الأموات، تركتُ على قبرها صورة لابني حفيدها، ومضيت. وفكّرت لو أنّني قتلت نفسي، فلن ألتقيها في الجحيم.

❖ العالم يحتل يدي

كلّما عدت من اللعب في الشارع، غسلت يديّ بماء الورد؛ فتعرف أمّي أنّني صافحت عامل النظافة في الخارج. توبّخني كما في كلّ مرّة: "هذا الذي تتقزّز منه، له فضل في انتشار النظافة في العالم، يا بنيّ". ولكنّي لا أقتنع بكلامها، ويبقى في داخلي الخوف يقظًا.
فالعالم يدخُلني عبرَ يديّ، ولا أريده أن يدخلني متّسخًا وبشعًا ومؤذيًا. أمسح خدّ أمي، فأنا أعرف أنّ أبي أزعجها بالكلام في غيابي حتّى أبكاها. مقبض الباب يخبرني بالأسرار.
أمس، أخبرني أنّ أمّي حزمت حقائبنا، وكانت تنوي اصطحابي من الشارع، رغبة بالهرب من حياة والدي إلى الأبد، ولكنّها عدلت عن رأيها عندما وضعت يدها على المقبض لتفتح الباب.
مع قسوة أبي، أنا لا أزال أجد من الشجاعة، في داخلي، ما يُمكّنني الجلوس على قدميه، والتمسّح برأسه. رأسه يخبرني

بأنّ بعض البياض بدأ يتّسع في قلبه الأسود، وإن كان قد سَرَب بعضٌ منه إلى لحيته وشعره، فصرتُ أجلسُ كلّ يوم على قدميه أقبّل جبينـه، ماسحًا رأسه... فيتّسع البياض، ويحنّ إلى أمّي أكثر.

وسادة أمّي، يا لبؤس وسادتها! كلّما نمتُ عليها بكيت. وتتعجّب أمّي، فتأخذني في حضنها، وأضع يدي على قلبها؛ ليخبرني بمزيد، وأبكي أكثر... وتسألني: هل تكرهني بنيّ؟!

السرّ في يديّ، أمّاه. هذا العالم يحتلّ يدي، يدخل عبرها إليّ. أينما وضعتها، يخبرني من خلالها بسائر الأجوبة المبتورة، والقصص التي لم تكتمل. بين أصابعي متّكأ لحكايات وأسرار تعذّبني. في كفّي بعضٌ منّي، وكلٌّ منكم.

اليوم صافحت آخر سيرة لعامل النظافة، لمقبض الباب، ووسادة أمّي وخدّها، ورأس أبي الذي صار أبيضَ كالثلج، مثل قلبه.

حين تأخّرت في العودة من اللعب، قلقت أمي، وخرجت تبحث عنّي، من رآني، في الشارع، أخبرها بما فعلته.

في المشفى، لم أقرب النطق عدّة أيّام، وأوّل ما تكلّمت كان حديثي إليها: لم يبقَ من حاجةٍ إلى ماء الورد، لقد بترتها؛ لأغلق الباب في وجه العالم.

❖ الارتطام

... لحظة، دعني أتذكّر!
في الواقع كنت أُسرع في المشي هاربًا، وفي سرّي أشتمُ المتسوّلة العجوز وهي تنادي عليّ: "يا ولد، يا ولد". ثمّ بدا لي وكأنّ خطواتي المتعاقبة صعّدتني علوًّا أمتطي الريح، في حين أنّي، في الواقع، كنت أطير هابطًا، دنوًّا!
لقد طرت، وإنّما طرت ثانيةً واحدةً من الزمن، ثمّ حدث الارتطام.
لحظة! دعني أتحسّس مواطن الألم في جسدي.
نعم، وجهي كان أوّل جزء منّي ارتطم في الأرض، بدَوت معه كمَن ينحني ليقبّل التراب.
بعد ذلك، عقبه صدري، ثمّ بطني، فأقدامي، وفردة حذاء خائنة أنقذت نفسها في اللحظة الأخيرة، وظلّت تتأرجح على الحافّة.

مرّت ثانيةٌ واحدة منذ أن حدثت لحظة الارتطام، لم أشعر فيها بشيء، إلى أن أحسست بسائل حارٍ جدًّا يخرج من أذني، وآخر يماثلُه من أنفي، وألم شديد ضلّ موضعه في بدني.

- "ساعدوني".

بدت الاستغاثة وكأنّها تنازع للخروج من داخلي، فتراها ترتفع بجهد حتّى تصل قمّة حنجرتي، ثمّ تعود وتسقط.

مرّت دقيقة وكأنّها ساعة، غاب فيها عنّي وعيي، ثمّ سمعت بعض المتجمهرين في الأعلى يتحسّرون عليّ "يا للمسكين".

"هل هو أعمى؟! كيف لم ير حفرة بهذا الحجم؟!" سمعت المتسوّلة العجوز تقول: "ناديته لأحذّره، فلم يسمعْني".

كانت الحفرةُ تكفي خمسة أشخاص. يا الله! اجعل أربعةً من هؤلاء المتجمهرين يسقطون عندي.

كم أشعر بالوحدة، يا ربّي!

استمرّيت في الدعاء، إلى أن تناهى إلى مسمعي صوت سيارة الإسعاف قادمة من بعيد.

ولطالما كان وقع صوتها يثير قلقي وخوفي، فأجمد في مكاني مستعيذًا بالله على قدْر تلاحق الثواني، ومهما اتّفق أن كانت وضعيّتي؛ سواء أكنتُ جالسًا إلى الطعام، أم غارقًا في لذّة الاستحمام، أم مقيمًا فروض الصلاة، وذلك إلى أن يغيب صوتها عنّي؛ فأعود وأكمل ما كنت بصدده.

دقيقة أخرى، فقدت فيها الوعي. أيقظتني خمس أيادٍ، مُدّت وهي تحاول تحريكي، وتزويدي بالأوكسجين.

- "الحمد لله، هي النجدة! إنّها المساعدة، هي النجدة! الحمد لله...! تفٌّ على هذه الحياة الرخيصة، تعيش تسعةً وعشرين

عامًا، ثمّ في ثانية واحدة يحدث السقوط، فالارتطام. ثانية واحدة تهلكك، وربّما مكّنتْ منك القتل. وثلاثمئة ثانية يستغرقُ منهم الوقت لإنقاذي".

... ثمّ سائر التفاصيل: البكاء والعويل، القبلات المنهمرة على جبينك، بخاصّة تلك المقزّزة التي يلازمك أثرها لعجزك عن محوه، الحملُ على الأكتاف...

تفاصيل وتفاصيل... لا أعتقد أنّها تغيبُ عنك.

والآن، قل لي يا جاري العزيز: كيف مُتّ أنت؟!

❖ امتداد الكابوس

ملحوظة: في هذا الفندق، كتب "أندريه تشاييف" روايته "امتداد الكابوس".

– مرحبًا سيّدتي، كنت قد حجزت غرفة رقم 202، جناح د.

– نعم، نعم سيّدي، تفضّل. من هنا، أهلًا بك، هذه الغرفة مميّزة جدًّا.

في داخل الغرفة، يكلّم "فهد" نفسه: رائع، رائع، هنا على هذا السرير كتب "أندريه" الفصل الأوّل، ربّما بدأ الكتابة على هذا المكتب، ومن الجائز أن تكون الفكرة كلّها قد بدأت من هذه الشرفة.

"أندريه تشاييف" روائي روسي، له عديد من الروايات، ولكنّ "امتداد الكابوس" كانت أعمقها وأحسنها سمعة. ولأنّ "فهدًا" معقّد قليلًا في مسألة اكتسابه متعة القراءة، عرف، من خلال تقصّي الرواية، أنّ مؤلّفها كتبها في هذا الفندق الذي اتّفق أنّه يقيم فيه، في مرحلة تحصيله علوم الطبّ طالبًا مبتعثًا في المدينة نفسِها.

وعرف من مصادر موثوقة رقم الغرفة، فقام بحجزها، وانتظر قرابة الشهرين حتّى أصبحت شاغرة له مدّة ثماني عشرة ساعة لا أكثر.

فقام، واشترى نسخة من المكتبة المجاورة للفندق، وقد رغب بشدّة أن تصل به متعة القراءة إلى قمّتها، في الأجواء نفسِها التي كُتبت فيها الرواية. فكلّ التفاصيل قد تؤثّر في ذلك، بدءًا برائحة الأثاث، وانتهاءً برائحة الصابون التي تعبق بها الأغطية.

استلقى على السرير بعد أن عدل وضعيّته، أكثر من مرّة؛ للعثور على الوضعية المناسبة للقراءة السليمة والطويلة. أغمض عينيه دقيقة؛ ليهيّئ خياله، ثمّ فتح الرواية متجاوزًا الإهداء والمقدّمة، واستغرق في القراءة ساعتين متواصلتين.

الصفحة 267: (قالت له: "الوقت ثقيل للغاية، بالكاد أتنفّس"، ثمّ ألقت بنفسها من الشرفة لترتطم في الأرض مِن على بعد).

بوصوله هذا السطر من الرواية، اضطُرّ "فهد" إلى التوقّف عن القراءة. نهض، وعدل جلسته، وراح يقلّب صفحاتها بعنف، موافقًا التسلسل، الورقة التالية كانت مقطوعة ومفقودة بفعل فاعل، لماذا يُقطع هذا الجزء، ماذا تحتوي هذه الورقة تحديدًا؟!

فكّر قليلًا، ثمّ قرأ الصفحة التي تلي تلك المفقودة، فإذا فيها فصل جديد، فزاد ذلك من غضبه. وفجأة، وقف، ومشى مثل "الروبوت" باتّجاه الشرفة، فتحها، وقاس بُعدها عن الأرض بنظرة فاحصة، ثمّ التفت ناحية السرير، حيث بعض صفحات

الرواية التي كان قد مزّقها في فورة غضبه، وقال: "الوقت ثقيلٌ جدًّا، لا أكاد أتنفّس"، ثمّ ألقى بنفسه من الشرفة؛ ليُتمّ قراءة ما فُقِد.

❖ حجر أساس لـ "مشروع مجرم".

ـ لماذا قمتَ بهذا الفعل الشنيع يا بنيّ؟
ـ لأنّني فاشل في الرياضيّات، ولكنّني أجدُ نفسي ممتازًا جدًّا في أشياءَ أُخر كثيرة.
أبي لم يلحظ هذا التميّز، حتّى أنّه لم يلحظ الجهد الذي أبذله؛ لأحصل على علامة جيّدة في الرياضيّات.
ولأنّها علامة جيدة، وليست كاملة، يصرُّ، كلّ مرّة، على ضربي بعنف: يشدّ أذني، ويعاقبني بحرق سبّابتي وإبهامي بالنار، عدا عن الشتائم، من قبيل: "أنت فاشل، غبيّ كوالدتك، قبيح"، وغير ذلك مِن ألفاظ كثيرة يخدش بها سمعي، كلّ مرّة يصدر منّي ما يُدرج في حماقة الأطفال.
في أثناء ذلك كلّه، أكتفي بالبكاء، والبكاء بحرقة فقط. لا أعلم مشكلته معي، ولكنّي أعتقد أنّه يكنّ لي كرهًا شديدًا، كنت قد شعرت به في السادسة من عمري، حين كنت ألفيه يبحث عن أيّ سبب يبرّر فيه ضربي ضربًا مبرّحًا.
عندما بدأت اكتشاف محيطي، وأدراك ما حولي، كان يمنعني من تناول الطعام معه ووالدتي.

في إحدى المرّات - بالنسبة إلى هذه المسألة - أذكر أنّ ردّة فعلي كانت عادية، فقد بكيت أوّل الأمر، ثمّ لجهلي، ظننته سلوكًا طبيعيًّا سواء أأكلت قبلهما أم بعدهما! أحيانًا حين أبكي بسبب ألم ما، أو لنقص حاجة معيّنة، كان يحملني ويرمي بي فوق الفراش، ويأمرني بالنوم، فأنام تحت تهديد مرعب، كأنْ يتوعّد بأن يلفّني في كيس ويرميني في القمامة؛ لتأكلني القطط.

وكلّما كبرت، كان يسرف في ضربي أكثر. بدا لي أنّه كان يفعل ذلك بشكل مألوف، وكأنّه مدمن عليه، ربّما تعرّضت أمّي المسكينة، في طفولتها، لمثل ما تعرّضتُ له. هي ضعيفة جدًّا، ولا تملك من أمرها شيئًا سوى أن تهزّ رأسها. هزّ الرأس عندها يعني: "نعم، حاضر، أنا آسفة"!

كانت مدّة بكائي تطول في كلّ مرّة، وفي أيّ منها لم أتعافَ من شعوري بالظلم والأسى. كانت أمّي تتدخّل متأخّرة، بعد أن ينال بدني الصغير أشكال الضرب على اختلافها، وما يرافق ذلك من إهانات، وأحيانًا يكون ذلك لسبب تافه؛ كأن أعجز عن حفظ آية بحسب الأصول، أو أغلط في النتيجة النهائية الصحيحة لمسألة رياضية ما، وأحيانًا أخرى، بسبب إصداري بعض الأصوات في أثناء مضغي الطعام، وغالبًا أُضربُ بلا سبب.

كرهتها حين كانت تقف بعيدًا، وهي تنوح؛ وكأنّ جدارًا شفّافًا يمنعها من التدخّل.

كيف يكون من نصيبي أبوَين مثلهما؟

في لحظات معيّنة، كنت أشعر وكأنّ نارًا تشتعل في فروة رأسي، وبمجرّد أن تحتضنني أمّي، وتمسح البصاق عن وجهي بطرف كمّها، يتملّكني شعور وكأنّ أحدهم سكب عليّ بعض الماء البارد.

جسدي يقول لي أشياء كثيرة، وحدها أمّي تسمعها حين تضع "كمّادات" الثلج على رضوضي، ومرهمًا لتسكين الألم. إنّما الكلام الذي يقوله قلبي، لا أحد يسمعه غيري، إذ لم يعد البكاء كافيًا، حتّى حضن أمّي توقّف عن تأديته العزاء الكافي.

ماذا يُتوقّع من طفل لم يشعر بأيّ أمان في حضن أمه قطّ؟

مرّة، ولكي أعالج نفسي، انتفضت في حضنها، ثرت عليها وضربتها، شددت شعرها، وركلتها، حتّى أنّني عضضتها، وحين شعرت بطعم الدم الحارّ والمرّ في فمي، ارتعبت. كلّما أتذكّر كيف استسلمَت لي، ولم تقاومني، أكره نفسي، ويزيد هذا الكره كلّما تعزّز اقتناعي بأنها سمحت لي بأن أصبّ غضبي على جسدها الهزيل، وأنّها، بعد أن فرغْتُ، سمحت لي بالاستلقاء والنوم في حضنها.

بعد ذلك، تأمّلت المشهد مليًّا، وعرفت أنّني بحاجة إلى شيء ما، مثل أمّي، أفرغ فيه غضبي، ولم أجد غير وسادتي، ثمّ تطوّر الأمر إلى ميلي نحو تعذيب الحشرات التي تدخل غرفتي، وعمومًا ما يدخل ويخرّب في المنزل، كالنمل.

أدمنت أفلام القتال والمصارعة، فقد توقّف منظر الدم عن تأثيره في إخافة طفل الثامنة.

تمنّيت مرّة تدخّل الخيال، وبشدّة رغبت في أن أتحوّل إلى صخرة عديمة الشعور، بعيدة عن الأذى. ومرّة مسكتُ

حمامةً، نتفتُ ريشها ريشةً ريشةً، طعنتُها وأنا أتلذّذ بمنظرها وهي تتألّم، ووجهي تعلوه ابتسامة نصر. وأجهل! هل انتصرتُ على أبي، أم على نفسي؟ فبعد أن ماتت، اكتشفت أنّني ما زلت أحمل شيئًا من الضعف في داخلي، فزاد تحمّسي بوجوب التخلّص منه.

بقيت مدّة أترصّد الأطفال الأصغر منّي سنًّا في الشارع، أمارس عليهم ما يمارسه أبي عليّ من ضرب وشتم وركل وبصق... فصرتُ أشعر بفخر يعتريه زهو حين أطلّ مقبلًا إليهم من بعيد، وفي الأخصّ حين ألفيهم يفرّون عنّي كالجرذان خوفًا.

أكاد أكون الطفل الوحيد الذي يفرح حين يسافر والده، إذ لا يمرّ يوم أنجو فيه من قسوته - سواء أكانت جسدية أم معنوية- سوى حين يسافر. وأيام سفره، بخلاف أيّام سفر باقي الآباء، لا تتجاوز اليومين، ولكنّها بالنسبة إليّ أجدها قصيرة بعمر الساعات، وربّما وجدها طفل آخر بعمر الدهور.

أعترف بأنّني أكره أبي. أمّي هي الوحيدة التي أستطيع أن أصرّح لها بهذه المشاعر، ولا يؤلمني الاعتراف بها، فتعزّيني متذرّعةً بفرط حبّه لي، وبسعيه إلى تحصيلي الأفضل في كلّ شيء.

بعد أن اكتشفت الطريقة لأتخلّص من غضبي الشخصي تُجاه أبي، عزمت على أن أخرج، وأحوّل شتائمه كلّها إلى مَن أقابلهم في الشارع، أو في المدرسة، فقد نجحتُ في قتل ذلك الطفل الانطوائي، ذلك الكائن الخائف والحزين في داخلي.

عمومًا، وضعني أبي، منذ ولدتُ، حجر أساس لِـ "مشروعِ مجرم".

(الشتيمة الأولى: البصاق)
كما أخبرتك، كبرت قليلًا، وثمّة بذرة تمرّد بدأت تنمو في داخلي.
صرت أتملّص من بين يدي أبي كالزئبق، وأهرب من البيت، ولا أعود حتّى يهدأ أو ينام.
مرّة، وفي أثناء تملّصي منه، اصطدمت بالباب، وحين وصلت إلى منتصف الشارع، توقّفت عن الركض، وقد أرهقتني كتفي من شدّة الألم، فعدت، وركلت الباب، ثمّ بصقت في صفحته، وشتمته بكلّ ما تذكّرته من الألفاظ القذرة التي كنت أتلقّاها؛ فشعرت بالراحة، وكأنّ غضبي كان محفوظًا في زجاجة كسرتها فتسرّب محتواها ببساطة؛ فالباب لم يكن بابًا في عينيّ؛ بل كان بدن أبي.
في الواقع، عدت إلى الداخل، حيث كان أبي يجلس على أريكته أمام التلفاز، ويبدو أنّه عثر على شخص آخر ليبصق عليه ويشتمه في الأخبار. مررت بجانبه رافعًا رأسي، تمامًا كشخص انتقم لنفسه؛ لأنّي عرفت أنّ سلاحي الوحيد الذي يضمن لي انتصاري عليه، هو أن أُلبس الأشياء جسدَه؛ عندها، أكون أكثر شجاعة وجرأة، وأنا أضربه.

(الشتيمة الثانية: فاشل)

لم يبقَ أمامي سوى أن أحارب؛ لكي أعيش. تخيّلت الحياة ساحةَ معركة، وكلّ مَن فيها عدّوي. لذا، اقتنعت بأنّ عليّ أن أضرِب، وأقاتل كلّ من يسبّب لي أيّ إزعاج، أو أتوسّم في ملامحه سحنة تهديد أو ازدراء، وإن كانت ذبابة.

ذات يوم، في حصّة الرياضة في المدرسة، في ضمن منافسة ودّية في لعبة "كرة القدم"، كنت عضوًا في أحد الفريقَين، وقد ربح الفريق المنافس لنا؛ بسبب تقصيرِ حارس مرمانا الذي راح أحد الطلّاب ينعته بالـ "فاشل". من جهتي، لم أتمالك نفسي، مسكت الناعت من ياقته، وطرحته أرضًا، وبصقت في وجهه، وركلته، وأنا مصرّ على تأكيد وصفي له بأنّه هو الفاشل. أعتقد أنّي كنت مغيّبًا تمامًا، إذ تمثّل لي، في داخل عقلي، أنّي أمسك بأبي، فلم أترك شتيمة إلّا نطقها لساني، فقد شعرت بغيظي ينسلّ من داخلي حتّى احتراق وجنتيّ. ما أبشع أن يتحوّل الإنسان إلى وحش! لا أعلم ماذا أصابني! ربّما كان غضبًا مترصّدًا في رأسي، أفرغته في ذلك الصبيّ المسكين. أمّا جزائي؛ فكان أن عاقبتني إدارة المدرسة.

تلك الحادثة! كانت بداية تحوّلي إلى وحش.

(الشتيمة الثالثة: غبيّ)

نعم، بعد كلّ مصادمة مع أبي، صرتُ، من الفور، أخرج من المنزل لأجد شيئًا أُلبسه جسده وأضربه، تمامًا لكي أحقّق انتقامًا يقضّ مضجعي.

في يوم، كان جارنا يغسل سيارته، ولم أنتبه إلى الماء وهو يبلّل الأرضيّة؛ فسقطت. ضحك منّي، وهذا ما جعل غضبي يتجاوز احتمالي؛ فشتمته. قلت كلامًا جهلت معناه؛ ولكنّني، في أقلّ تقدير، تلمّست قذارته ومدى تأثيرها؛ لأنّ فم أبي لم يكن لينطق بوجهي إلّا القذارة، وكأنّني رحت أقلّده، إلى درجة أنّي صرت أجترّ بعض الصفات ترديدًا؛ من قبيل: "غبيّ، أيّها الغبيّ"، وذلك، في حال نسيت أو عجزت عن استحضار نعت جديد ككلمة "أهبل".

مع هذا كلّه، لم تنكسر زجاجة غضبي، فتحيّنت الليل؛ ليسهر الشيطان معي، ويغذّي حقدي – وربّما صار يُصرّفني كآلة - فلم أنم حتى كسرت ما استطعت كسره من زجاج سيارته، وتمزيق إطاراتها.

بعد ذلك، نمت كمن ابتلع علبة منوّم أو مهدّئ.

أحتقر نفسي أحيانًا؛ لأنّني، حين أستذكر ما فعلته من سوء، لا أستشفّ أيّ خجل في نفسي، ولا أشعر بأيّ خزي، مع أنّني أعرف، في داخلي، تمام المعرفة، أنّ ذلك فعلٌ شنيع وقبيح.

(الشتيمة الرابعة: قبيح)

شهد جسدي أنواع الضرب كلّها، إلّا وجهي. أوّل مرّة صفعني فيها أبي، كان ذلك اليوم الذي كرهت فيه نفسي. خرجت من البيت هائجًا، وأنا أشعر بوجهي يحترق، مع إحساس بصدق ما اعتاد أن يصفني به أبي: قبيح.

تعبت من الركض، جلست في زقاق شبه مُضاء، وبينما أنا جالس أتوعّد "لا أحد" بأفعال سيّئة سأمارسها على "لا أحد" آخر، كان ثمّة قطٌ يدور حولي ويموء، أزعجتني طريقة تقرّبه منّي، كما لو كنت أحشو جيوبي ببعض السمك طعامًا له، اقتربت منه، ولكنّه اختفى ولم أعد أرى سوى أبي ممدّدًا على أريكته أمام التلفاز، فركلته، مسكته مع شعره وبصقت في وجهه – تمامًا كما كان يفعل – تحديدًا بين عينيه، ولم أكتفِ بذلك، بل كسرت علبة مشروب زجاجية كانت بمتناول يدي، وشوّهت وجهه بها، وحين فرغت من تنفيس غضبي سألته: من منّا القبيح الآن؟
فاصل: علّمني أبي أشياء كثيرة، ربّاني على أن أكبر وقحًا، حقيرًا، وعدوانيًا كما لو كان يطعمني الشرّ في طبق. أيّ فعل، أو تصرّف، أعلم أنّه يؤذي الآخرين ويؤلمهم، أتبنّاه وأستمتع في ممارسته.
يدي حاقدة، قدمي حاقدة، قلبي حاقد، لساني حاقد، جسدي بأكمله حاقد على البشرية كلّها، إذ لم يقف حقدي على أبي فحسب؛ بل تعدّاه إلى أمّي التي لم تنجُ منه، وأحيانًا إلى جدّتي التي أضرمت النار في سدرتها، وذبحت دجاجاتها. بتّ أشعر بأنّ الحياة صارت حادّة كنصل، فكلّما كبرت طعنتني؛ كي أزداد حقدًا وغضبًا. الكلّ يتجنّبني، حتّى الذين كادوا أن يصبحوا أصدقاء لي، هجروني كما لو كنت شيطانًا، أو إنّما سيأخذهم مباشرة إلى الجحيم. لم يسلم منّي أحدٌ في الحيّ أو في

الشارع، أمّا المدرسة؛ فقد ضاق مديرُها بي ذرعًا، واتّخذ بعدَ ذلك قرارًا بطردي.

(الشتيمة الخامسة: قذر)
دخل أبي، يومًا، غرفتي، كنت في أواخر العاشرة من عمري. وجدني أضرب كيسًا من الإسفنج، صنعته بنفسي. كان يحمل أداة حلاقة، ومن دون أيّ سبب، ثبّتني على الجدار واضعًا ذراعه اليسرى على حلقي، حتّى لا أكاد أتنفّس، عوضًا من أن أصرخ وأعترض. حلق شعري كلّه، وهو يردّد: "قذر. أيّها القذر".
قبل أن أستوعب تصرّفه، كان مُنهيًا فِعلته، ومغادرًا غرفتي. رأيت نفسي في المرآة، فبدوت لي بندبة في خدّي الأيمن، أصلعَ شبيه المجرمين الذين يظهرون في الأفلام، وثمّة خطوط حمراء في عينيّ اللتين زاد اتّساعهما، بعد أن حلق شعري. جلست ثلاث ساعات أراقب غضبي في المرآة، وهو يتضخّم، ويجعل وجنتيّ تحمرّان، وأنفاسي حارّة حارقة. كلّ هذا، وشيطاني يحثّني على المبادرة بردّات فعل سيّئة.
أنا أعلم أنّ والدي ينام أمام التلفاز؛ كالميت بعد أن يقضي عليه شرب الكحول، حتى تبدو رائحته كجثّة كلب في طور تحلّلها. لففت أداة الحلاقة في قطعة قماش؛ لأكتم صوتها، وبينما هو نائم، حلقت ما ظهر لي من شعر رأسه. أوّل ردّة فعل أتجرّأ على تنفيذها، في الواقع، بحقّ والدي، بعيدًا من الخيال، وقد صوّره لي عقلي في جسد حيوان أو جماد.

استيقظت في الصباح فزعًا على ركلة منه، فقد ضربني وأسرَف في ذلك؛ حتّى ظننت بأنّني سأموت بين يديه. حملني ككيس قمامة، وألقى بي في الشارع. توعّدني بأنّه سيقتلني إذا عدت إلى بيته مرّة أخرى.

أمضيت يومَين في المشفى – لم أتعرّف من التقطني من الشارع وأحضرني إليه- كنتُ حاقدًا، ولم أجب أحدًا؛ وأخفيت هُويّتي، وهُويّة أبي.

هربت في اليوم الثالث، وعدت إلى البيت، لعلمي أنّ أمي وحدها، مَن يكون في المنزل في تلك الساعة. الأمّ التي كانت تصدّه قائلة له: "أرجوك لا تضربه وهو نائم" – بمعنى: اضربه حين يستيقظ، لا بأس- ربّما كانت أمّي هي المضروبة. فقد حقدْتُ عليها، فإذا كان لا بدّ لأحد من أن يُضرَب؛ فلمَ لمْ تمنعه كلّ مرّة، وتوقفه قائلة: "اضربني بدلًا منه".

اغتسلت، وجمعت بعض الثياب في حقيبة، وسرقت بعض المال أمام ناظريها، من دون أيّ شعور بالذنب، وأخبرتها بأنّها لن ترى وجهي بعد ذلك اليوم أبدًا.

عشت ستّة أشهر في الشارع. ما عشته ورأيته فيه، كان يغذّي حقدي تُجاه الحياة بأسرها؛ فازددت عنفًا وقسوة.

في الشارع، ثمّة أصدقاء كثر، غير أنّ الصداقة العديمة الثقة، مجرّد تسلية؛ وغالبًا توظّف في تمضية الأيام، وتوزيع الشرور والأحقاد فيما بيننا، وتوزيعها هذا، لا يعني تقليصها؛ بل تضخيمها أكثر.

شعرت بأنّني كائن متعدّد، هناك كثُر مثلي، كما أنّ هناك كثُرًا لست مثلهم، إذ لكلٍّ منّا خصوصيّاته التي يخفيها عن الآخر.
حين حلّ الشتاء، لم تسع الجسور حمايتي من لسعة البرد، ولا النار التي كنت أرمي فيها كلّ شيء، حتّى القطط المزعجة وهي لا تزال حيّة.
يتراءى لي أبي ناعمًا بالدفء، يشرب أمام التلفاز، مشهد يبرز أمامي كلّما اصطكّت أسناني من شدّة البرد.
سرقة الوقود من الخزّان في السيارات أمر سهل، كذلك إطعام النار، كنت أستعمل أيّ شيء أجده أمامي في سبيل الاستدفاء، حتّى الكائنات الحيّة القابلة للاحتراق.
حتى أبي! نعم.
لم أنس طريق البيت، ولم أنسَ مكان المفتاح الاحتياطي.
ظننت أنّني سأشعر بالدفء حين أراه على أريكته يحترق، وأنا أستمدّ الدفء من احتراقه؛ ولكنّني لم أشعر بالاختلاف، فقد كانت رائحته كرائحة الكلاب وقطط الشارع التي كنت أطعمها النار، وإنّما الفرق الوحيد، هو أنّي كنت أرتجف، على الرغم مِن حرارة النار، إلّا أن رجفتي، هذه المرّة،كانت نتيجة الخوف، وليس نتيجة البرد.

❖ يوسف

الفضول فطرة في الإنسان...
قد يتجمهر المئات حول مشهد قطّة مُداسة، أو حول طفل جاء في غير أوانه بالنسبة إلى أبويه.
ربّما اكتشفت أنّ الحياة محض "حاوية للقمامة".
الساعة ٥:٣١ م.
مع أنّ هناك من غرس لافتة "احذر! منطقة خطرة قيد الإنشاء"؛ إلّا أنّ عملها لم يأت بما يجب أن تؤدّيه مثل هذه التحذيرات؛ فالضحيّة كانت طفلًا في الخامسة من عمره، لم يكن ليبلغ كفاية القراءة بعد.
- سجّل: في الحفرة طفلٌ يحتضن حقيبة نسائية.
- سبب الوفاة: سقوط من علوٍّ على أعمدة البناء الحديدية، واختراق أربعة منها جسده.
- توقيت الوفاة: بين الساعة ٥:٠١ و ٥:١٤م.

- الشاهد 1: رأيته يجري هاربًا، حاملًا حقيبة، حسبته قام بسرقتها.
- الشاهد 2: كنت عند أوّل الشارع حين سألني عن بيت أمّ (...)، كان يقصد في سيرِه إلى ذلك المنزل في الزاوية.
- الشاهد 3: لا حول ولا قوّة إلا بالله! أعرف هذا الصغير، هو يتردّد إليّ مع أخيه الأكبر، يشتريان مستلزمات البيت من بقّالتي.
تدخّل شاهدٌ آخر 4:
- نعم، هذا الصبيّ ليس من حيّنا، إنّه من الحيّ الآخر.
- الشاهد 5: ما أقبح هذا الجيل! وما أكثر استهتاره! طلبت منه الحذر، لم يردّ علي.
- الشاهد 6: تعالَوا أدلّكم على رفاق أخيه.
- سجّل: المسافة طويلة جدًّا على طفل في الخامسة. يبدو أنّه عبر شارعًا رئيسًا، وغالبًا يُعاني الازدحام، في مثل هذا الوقت.
- الشاهد 7: نعم مرّ مِن بيننا حين كنّا نلعب الكرة...
قاطعه شاهد آخر 8:
- قام الأولاد بمطاردته بقصد ضربه؛ ولكنّه كان أسرع منهم، وهرب. أنا لم أكن معهم، والله!
تدخّل شخص:
- ماذا يحدث؟

- ''طفل في الخامسة يرتدي قميصًا أزرق، وبنطالًا قصيرًا أصفر، لقي حتفه في الحفرة الخاصّة بمشروع المشفى في الشارع المقابل. هذه صورته، هل تعرفه؟
- الشاهد 9: يا الله، هذا ''يوسف''، نادتني أمّه قبل قليل، وأرسلتني بحثًا عنه، تُعجّلني مهمومة، أنْ: لقد تأخّر.
- الشاهد 10: صبرًا جميلًا، يا الله! نعم هذا ابن ''أحمد''. أحمد الذي يعمل في البلديّة. ذلك بيتهم، ذو الباب الأسود.
- الأمّ: نعم، ''يوسف'' ابني! أرسلته ليعيد إلى جارتي حقيبة نسيَتْها عندي، اتّصلت بها أسألها عنه، وعن سبب تأخّره، وقد نفَت وصوله إليها. أين ابني؟ هل حدث له أيّ مكروه؟ لا، يا الله! أنا السبب. لقد قلت له: ''حافظ على الحقيبة حفاظَك على حياتك''.
الساعة: ٦:٣١م.
أذان المغرب. إغلاق.

❖ يعضني الندم

القضيّة ليست في التوقيت - بعد منتصف الليل - ربّما كانت في المنبّه الذي يرنّ في هذا التوقيت كلّ ليلة؛ بغرض إيقاظه.
حين أُخبِرتُ بأنّه، في كلّ ليلة بعد منتصف الليل، ينزل إلى الشاطئ، ويتحدّث إلى الموج حتّى مطلع الفجر، صُعقت.
ولطالما عرفته كم كان يكره البحر!
حينها، كان الهاتف النقّال الخاصّ بأختي - زوجته- لا يزال قيد الخدمة. أرسلت له، عبره، رسالة نصّية أسأله حول الغاية من هذا الفعل المريب! أجاب: "أسأل الماء عنك. يا لسعادتي! لم أكن أعلم أنّ الهواتف النقّالة تعمل تحت الماء".
كانت أختي قد غرقت منذ مدّة غير بعيدة. أمّا هو؛ فقد لزِمَته "عقدة البحر" التي عظُمَ أثرها فيه، فيما يبدو لي، ومنذ شهرَين، تحوّلَت إلى شيء آخر، في نفسه.
أرسلت له، على سبيل المواساة والرأفة بحاله: "نعم، وإنّما لا يمكنك مراسلتي سوى مرّة واحدة في السنة، في ذكرى وفاتي"

بعد يومين، أُخبِرْتُ بالعثور على جثّته منتفخة تطفو قرب الشاطئ، وقد ربط في يده اليمنى كيسًا من البلاستيك، وضع في داخله هاتفه النقّال، وصوّر احتفال زواجهما.

في بداية إنشاء مؤسّستهما الزوجية المشتركة، كنت قد التحقت بدورة لتعلّم السباحة. تعلّمت السباحة، وأهملْتُ الجزء الأبرز فيها، وهو "عدم الغرق". ماتت أختي وهي تحاول إنقاذي، ومات زوجها وهو يحاول اللحاق بي - أقصد إلى معنى الطيف الذي خلقتُه لأختي تحت الماء.

التوقيع: رقم ملفّ المريضة ١٤٣، مستشفى العاصمة، قسم الأمراض النفسية.

❖ أمي اسمـها (مـاما).

حين سألني الضابط عن اسم أبي، كان جهلي واضحًا، وكأنّني لا أعرف شيئًا؛ فقد أجبته: "بابا". أمّا عن اسم أمّي؛ فقد أجبته: "ماما". لم أفهم، في حينها، لماذا علا الضحك من حولي! ولكنّ ضحكة الضابط ساعدتني على الكفّ عن البكاء.

وبعد عشرين عامًا، ما زلت لا أعرف شيئًا، ما زال اسم أمّي "ماما"، واسم أبي: "بابا"، غير أنّ هؤلاء الذين رعَوني هذه السنوات كلّها أسموني "وحيدًا"، إذن: أنا وحيد.

حين بلغت سنّ السادسة عشرة، بدأتُ رحلة البحث عن والديّ الحقيقيّين، تتبّعتُ التفاصيل الصغيرة كلّها، بحسب ما توافر لديّ من معطيات، فزرت الأماكن، وسألت، وقابلت كثيرًا من الأمّهات والآباء ممّن عانوا مصيبة الفقد، على أمل أن أكون ابنهما المفقود، إلّا أنّ محاولاتي كلّها باءت بالفشل.

يبدو أنّني سقطت من الفضاء!

أمس، في التاسع من يوليو تحديدًا، الساعة الخامسة عصرًا، قابلت ماما. تكشّف لي أنّني لم أكن وحدي من يشدّ الخيط نحوه، فكذلك كانت أمّي، في الجهة الأُخرى، كانت تشدّ الخيط، ومعه تشدّني نحوها، فهي لم تفقد الأمل، أبدًا، في العثور عليّ، واستمرّت في البحث عنّي طوال السنوات الماضية.
حين رأت صورتي، هتفت: "هذا هو ابني، لا يمكنني أن أخطئ هاتين العينين، على الإطلاق".
حين قابلتها، تملّكتني الرجفة. لا أعرف ما نوع ذلك الشعور الذي لبسني! غير أنّني كنت على وشك البكاء. أمّا هي؛ فقد كانت هادئة، وراحت تتحسّس وجهي، وتتفقّد أصابع يدي.
أوّل حوار كان بيننا، قالت لي: "ابك".
هل كنت أنتظر منها هذا الأمر لأنفجر باكيًا؟ لا أعلم! فقد انشغلْتُ بدموعي. أمّا هي؛ فقد أخرجت من حقيبتها - لا إراديًا، وبارتباك- قنّينة حليب. هذا الفعل العفوي بعث فيَّ شعورًا بالألفة، فاسترجعت ذاكرتي مشهدًا مماثلًا، ألفْتُ تكراره في طفولتي، جعل وجهها مألوفًا بالنسبة إليّ؛ فاحتضنْتها طويلًا. ولمّا انتهيت من فصل البكاء، سألتها عن اسمها – وصدى ضحكة الضابط قبل عشرين سنة لا يزال يطنّ في مسمعي- فأجابتني وهي تبتسم: "أمّ وحيد".

❖ أعواد الثقاب

- لا أدري، لِمَ يُهدر هؤلاء الحمقى شموعهم، في هذا الليل البارد، في أثناء عبور شخص لن يكلّف نفسه فتح نافذة السيّارة، وإكرامهم بتلويحة واحدة!
- ليسوا حمقى! ولكنّهم أناسٌ تأمُل كثيرًا. لعلّ كثرة الشموع، تجعله يجيئهم، في المرّة القادمة، بقرارٍ دخول الكهرباء إلى القرية!
بالقرب منهما كان يقف شابٌّ في أواخر العشرين، أشعث، أغبر الثياب، بدا عليه ارتباكُ لصٍّ، اجترّ في نفسه السؤال ذاته. سمع حوارهما، فتحسّس جيبه لا إراديًا.
رآه رجل كان يتّكئ على صخرة. قال له، وهو يدخّن سيجارته الثالثة، منذ بدأ الاحتفال بمرور الشخصيّة البارزة نفسها بالقرب من القرية: "في القرى التي لم تصلها الكهرباء، سيحسدك أهلها على أعواد الثقاب التي في جيبك".

حين يشعر اللصّ بأنّه على وشك أن يقبض عليه، حتّى ولو كان حدسه مخطئًا، يلوذ بالفرار. وهذا ما فعله الشابُّ الأشعث، فقد لزم الصمت، وانسلّ من بينهم بهدوء لصّ هارب، يتجنّب أيّ ضجّة تفضحه.

اتّجه نحو شجرة، تحتها حقيبة وكومة من الأغطية، يبدو أنّ ظلّها كان مكان إقامته منذ دخل القرية، أخرج من جيبه أعواد الثقاب كلّها، وطمرها في الحفرة نفسِها، إلى جانب كثير منها. بعد سرقتها، يبدو أنه يستأمن طمرها تحت هذه الشجرة بالذات!

لاحظ أهل القرية اختفاء أعواد الثقاب الخاصّة بهم، غير أنّهم أجّلوا الحديث في هذا الأمر، حتّى ينتهي الاحتفال. في الصباح، اجتمعوا وتشاوروا. كان الشابُّ الأشعث رأس القائمة، وربّما كان أوحدها، في ضمن سلسلة المشتبه بهم، بشهادة الرجل الذي خاطبه في أثناء الاحتفال.

راقبوه، لكنّ فضولهم منعهم من القبض عليه بالجرم المشهود وهو يسرق، تبعوه ليتبيّنوا غاية ميله إلى سرقة أعواد الثقاب خاصّتهم، وليس شيئًا آخر أكثر قيمة. بينما هو يحفر تحت شجرته العجوز، بالقرب من البيت المهجور؛ ليطمر بعضًا منها، انقضّوا عليه.

همّ أحدهم بضربه، غير أنّ أحد كبار القرية منعه.

سأله: من أنت؟ ولِمَ تسرق أعواد الثقاب، ثمّ تدفنها؟

أجاب وهو يرتعش من شدّة البرد: "لا أعلم، ينادونني محمد. أنا مقطوع من هذه الشجرة".

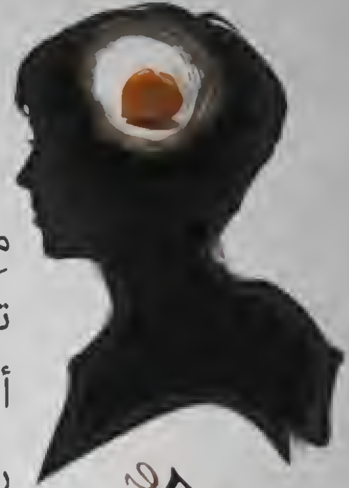
ثمّ أخرج من جيبه العلوي صورة قديمة له، أطرافها مقضومة، وألوانها باهتة، يظهر فيها وهو يلعب على أرجوحة كانت تتدلّى من إحدى أغصانها، وفي الخلف يظهر البيت المهجور... غير مهجور بالفعل آنذاك، وأردف باكيًا:
"لا أعرف من أنا، لا أعرف عنّي سوى هذه الصورة، يقولون إنّها صورتي وأنا في الثانية من عمري، وهذه الشجرة هي أمّي، أسرق منكم أعواد الثقاب؛ لكيلا تقطعوا أمّي، أمّي لا تصلح حطبًا للدفء، أرجوكم لا تحرقوا أمّي".
الرجل ذو السيجارة تراجع عائدًا إلى البيت، صعد إلى الغرفة العلوية، سحب صندوقًا فيه أعداد كثيرة من الصحف القديمة، فتّشها واحدة واحدة؛ حتّى عثر على العدد الذي يبحث عنه.
في صفحة الحوادث عثر على صورة لطفل فوق أرجوحة كُتب تحتها: "مفقود: الطفل 'أحمد عبد العزيز راشد'، عمره أربع سنوات، من إحدى القرى التابعة للرياض، خرج في الحادية عشْرة مساءً لشراء أعواد الثقاب لأمّه، ولم يعد".

❖ العودة من الموت

وصل خبر موتي إلى القرية قبل عامَين من الآن. وقبلها بعامَين، قُبض عليّ في إحدى المزارع، وأنا أهمّ بسرقة ثلاثة صناديق من التمر، مِن أجلِ أمٍّ رأيت أطفالها يمضغون جريد النخل من شدّة الجوع. فحُكم عليَّ بالسجن أربعة أعوام. وكانت لتكون أكثر، لولا أنّني كنت عابر سبيلٍ، صفحتُه بيضاء.

أُطلق سراحي بعد انتهاء مدّة سَجني، وأمامي طريق طويل، وسفر أطول، ربّما امتدّ أيامًا متواصلة؛ حتى أرجع إلى أهلي عائدًا من الموت. ففي القرى التي مررت بها، في أثناء سفري، التقيت أحد أبناء قريتي الذي أُغشِيَ عليه، فور رؤيته لي. وبعد أن استفاق، أخبرني بوصول أنباء إليه، من القرية، أنّني متّ!

يقال إنّ الأمّهات يشعرن بأبنائهنّ، أحياءً كانوا أم أمواتًا. وهذا مُطَمئنٌ إلى حدٍّ ما.
أمّا أمّي؛ فلن تصدّق ما لم ترَ جثّتي بعينيها وتقبّلها، وتدفنها، ولعلّها تنتظر عودتي الآن!
تجاوزتُ نظرات الدهشة كلّها، وأصوات البسملة التي تبغي همسها، إلى أنْ وصلت إلى الدار، طرقت الباب وانتظرت، لم يفتح لي أحد! تلفّتُّ؛ أين أمّي؟
رأيتها قادمة من بعيد يجرّ حمارها أكياسَ القمح التي تطحنها برحاها، كما اعتادت أن تفعل. لم تفزع أو تُدهشْها رؤيتي؛ بل توقّفت، وقالت للذين تبعوني يدفعهم الفضول: "ألم أقل لكم إنّه لم يمت، إنّني أراه في كلّ ليلة في أحلامي، يحرص على تحصين سجنه، وأسر نفسه بيديه؟".
هزّني كلامها في أعمق نقطة قد يصل إليها الألم في داخلي، وبكيت، إنّها لم تكن تشعر بي فحسب، بل تراني أنا كذلك، فقد كنت أصنع الأسلحة في السجن؛ بل كنتُ ماهرًا في صنعها.



حبة بندق تنمو في رأسي

مِن فور استيقاظه في المستشفى، وجد أخته الكبرى تحدّق فيه كما لو كان يؤدّي دور الساحر في سيرك ما. أخبرته، لاحقًا، بأنّه ثمّة حبة بندق تنمو في داخل رأسه. والأطباء يشعرون بتأنيب الضمير لتفكيرهم في إخراجها؛ بخاصة أنّها تكبر بسرعة.

سكت يفكّر في مدى صحّة كلامها، ولم يجد بُدًّا من تصديقها.

بينما كان يسأل الطبيب عن ميعاد رجوعه إلى المدرسة. أصابه الذعر؛ لأنّ الكوابيس لا تنتاب المستيقظين، فقد عاوده ذلك الكابوس؛ فبدأ العدّ التنازلي، وانتهى عند الرقم صفر، وغرق في الظلام.

وحين تيقّنت أخته أنه قد هدأ تمامًا، أخبرته، وهو ما زال غارقًا في الظلام، بأنّ حبة البندق في رأسه كبرت، وحجبت النورَ عن عينيه.

وفاء الحربي

@i0i_l0l

تصميم الغلاف : رفعة العجمي